
أليف شافاك
كيف نحافظ على
سلامة عقولنا
في عصر منقسم
Telegram:@mbooks90
ترجمة: أحمد حسن المعيني
دار الآداب







How to Stay Sane in an Age of Division







دار الآداب للطباعة والنشر



للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:







أليف شافاك روائيّةٌ بريطانيّةٌ من أصلٍ تركي، وحائزةٌ على العديد من الجوائز الأدبيّة. نشرت تسعة عشر كتابًا، من بينها اثنتا عشرة رواية، كانت أحدثها رواية جزيرة الأشجار المفقودة التي وصلت إلى القائمة القصيرة في «جائزة كوستا»، و«جوائز الكتاب البريطانيّ»، و«جائزة أونداتجي - الجمعيّة الملكيّة للأدب»، و«جائزة النساء للرواية». تُعدُّ رواياتها من الكتب الأكثر مبيعًا في دولٍ كثيرةٍ حول العالم، وقد تُرجمت أعمالها إلى سبعٍ وخمسين لغة. كما وصلت روايتها **10** دقائق و**38** ثانية في هذا العالم الغريب إلى القائمة القصيرة في «جائزة البوكر» و«جائزة أونداتجي ـ الجمعيّة الملكيّة للأدب»، واختارتها مكتبة بلاكوِل لتكون كتاب العام. أمّا روايتها قواعد العشق الأربعون فقد اختارتها «بي بي سي» ضمن قائمة «أفضل مئة روايةٍ شكّلت عالمنا». كما اختيرت روايتها الفتى المتيّم والمعلّم لتدشين «نادي قراءة دوقة كورنوول». حريٌّ بالذكر أنّ أليف شافاك تحمل شهادة الدكتوراة في العلوم السياسيّة، وقد درّست في عدّة جامعاتٍ في تركيا والولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة، من بينها جامعة أكسفورد التي تنتسبُ إليها بوصفها زميلةً فخريّة. هذا وتحمل شافاك شهادة دكتوراة أخرى في الآداب الإنسانيّة من كلّيّة بازد.

تتقلّد شافاك كذلك منصب زميلةٍ ونائبة رئيس الجمعيّة الملكيّة للأدب، واختارتها «بي بي سي» من بين أكثر مئة امرأةٍ إلهامًا وتأثيرًا. وهي عضوٌ مؤسّس في «المجلس الأوروبيّ للعلاقات الخارجيّة»، وداعمة لحقوق المرأة وحرّيّة التعبير، وتُعدّ متحدّثةً مُلهمةً إذ اختيرت مرّتين للحديث في محاضرات «تِد العالميّة». هذا وتنشر أليف شافاك في عدّة مجلّاتٍ كبرى حول العالم، وحصلت على «وسام الفنون والآداب» في فرنسا برتبة فارس. وفي عام 2017 م، اختارتها صحيفة «پوليتيكو» الأميركيّة بوصفها واحدةً من اثني عشر شخصًا «يملؤون القلبَ بالحيويّة التي نحتاج إليها». حكّمت شافاك في العديد من الجوائز الأدبيّة، بما في ذلك «جائزة بين/نابوكوف»، وترأست «جائزة وِلكم». كما حصلت على «جائزة هالدور لاكسنس الدوليّة للأدب» على إسهامها في «تجديد فنّ السرد».

www.elifshafak.com

كان ذلك في يومي الأوّل في إسطنبول، ذات مساءٍ تغمره النّسمات من شهر أيلول/سبتمبر، وقد انقضت منذ ذلك اليوم أقمارٌ كثيرة. كنتُ آنذاك فتاةً في ريعان الشباب تهفو إلى أن تصبح كاتبة، وقد انتقلتُ إلى تلك المدينة التي لا أعرف أحدًا فيها، تسوقني غريزةٌ لا أنا أدركتُها ولا خذلتُها. استأجرتُ شقّةً هزيلةً قرب ميدان تقسيم، في واحدٍ من أكثر أحياء المدينة فوضويّةً وانفتاحًا على العالم في الوقت نفسه. تتهادى إليّ من المقهى المقابل أصواتُ النرد على لعبة الدّامة، وصيحات النّوارس التي تهوِي على حين فجأةٍ كي تخطف شطيرةً من يد عابرٍ غافل. لكنّ الوقت كان متأخّرًا في تلك الليلة، وقد أوصد المقهى أبوابه، وحطّت النوارس على أسطح البنايات. لم أكن قد وضعتُ ستائر على نوافذ الشقّة بعد، فجلستُ إلى النافذة فوق صندوقٍ من صناديق الكتب والأوراق، أستحمُّ بضوءٍ شاحبٍ من عمود إنارةٍ في الشارع، ورحتُ أنصتُ إلى أصوات المدينة التي لم تخلد إلى النوم. أمّا أنا فلا بدّ أنّني غفوتُ برهة، إذ أيقظتني صيحاتٌ صاخبة.

ألقيتُ بصري من النافذة فرأيتها، تذرعُ الشارع، تعرج غضبى وهي تحمل فردة حذاءٍ مكسورة الكعب، فيما تُثابر كي تمشي بالفردة الأخرى. كانت ترتدي تنُورةً قصيرةً وقميصًا حريريًا. امرأةٌ طويلةُ القامة، مُتحوّلة الجنس. كنتُ أعلم أنّ ثمّة أقليّاتٍ جنسيّةٍ تقطن الحي، فهو واحدٌ من الأحياء المتحرِّرة نسبيًا، رغم أنّ معيشة تلك الأقليّات ومعاشهم كان يتأثّر دومًا بما يَرْشح من تحامل المجتمع وتمييزه المُمَنهج. وحيث إنّه لم تكن أمام هؤلاء المتحوّلات جنسيًا فرصٌ كثيرةٌ للعمل، فقد لجأت كثيراتٌ منهنّ إلى بيع الهوى عند ناصية الطريق، أو العمل في الحانات والنوادي الليليّة التي يقوم عليها عالم السهر والترفيه في إسطنبول.

كان الشارع الذي أسكن فيه (شارع صنّاع القُدور) لا يزال يحتفظ بجماعةٍ مترابطةٍ من المتحوّلاتِ جنسيًا تعتزُّ بنفسها، أمّا على مرمى حجرٍ من هناك فقد دفعتهنّ قسوةُ الشرطة إلى الخروج من تلك المناطق التي بدأت تشهد طفرةً في التنمية.

فلمّا عَبرتْ من تحت نافذتي سمعتُها تناجي نفسها، وتبيّنتُ بعض كلامها. لا بدّ من أنّ أحدًا قد مسّها بسوء، قد يكون عشيقها، وقد تكون المدينة بأكملها. كانت حزينة، لكنّها في واقع الأمر كانت أقرب إلى الغضب منها إلى الحزن.

يهطلُ المطر، تساقط القطرات

قطرةً، فقطرة، فقطرة.

وكعبٌ وحيدٌ يردّد الصدى فوق الحجر

دَقّةٌ، فدقّة، فدقّة.

أخذتُ أرقبها إلى أن انعطفت في نهاية الشارع. لم أكن قد رأيت امرأةً محطّمةً هكذا وتواصل مشوارها بإصرار. شعرتُ بالذنب لأنّني لم أفتح نافذتي وأتحدّث إليها فأطمئنّ على حالها. وشعرتُ بالخزي لأنّ ردّة فعلي الأولى كانت الانكفاء على نفسي في شقّتي، وكأنّني خشيتُ الإصابة بعدوى حزنها. ظلّت هذه الفكرة محفورةً في رأسي، أقصد فكرة التشابهات والاختلافات بيننا. فهناك وحدتُها التي شعرتُ أنّها لم تكن تختلف عن وِحدتي، وهناك خَجَلي وجُبني في مقابل جرأتها. كانت تلك المرأة قد ضاقت ذرعًا بإسطنبول، أمّا أنا فلم أكد أبدأ في استكشافها. لكنّ الأهمّ من ذلك كلّه هو أنّها كانت امرأةً مقاتلةً قويّة، في حين كنتُ أنا مجرّد متفرّجة.

وها هي قد انقضتْ سنواتٌ طويلةٌ منذ ذلك اليوم، ولم أعُد أعيش في إسطنبول، لكنّني اليوم وأنا أجلس إلى طاولتي في لندن كي أكتب عن عالمنا المشحون بالاستقطاب والاضطراب، أجد نفسي أستعيد تلك اللحظة، أتذكّر المرأة فأجدني مدفوعةً إلى التفكّر في معاني الغضب، والوحدة، والألم.

❋

ها نحنُ في زمن الجائحة. انتشر فيروس كورونا في أنحاء العالم أجمع وحصد مئات الآلاف من البشر، وخلّف الملايين من دون وظائف، ودكّ أركان الحياة التي نعرفها. في هذا الوقت نفسه ظهرت لوحاتٌ إعلانيّةٌ في حدائق لندن العامّة تقول: «حين يمضي كلُّ هذا، كيف تريد أن يكون العالم؟». لم يوضّح مَنْ وضع تلك اللّوحات المقصودَ من عبارة «كلُّ هذا»، فكان على العابرين أن يفسّروا مضمونها بأنفسهم. فهل المقصود ذلك الإرباك الذي حلَّ بأيامنا، أم ذلك الحسّ بأنّنا عالقون في موجةٍ من الحيرة والخوف ممّا سيأتي، أم ربّما هذه الأزمة الصحّيّة بآثارها الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، أم هذا النفق الذي ينبغي علينا نحن البشر أن نسير فيه من دون أن نعرف متى ينتهي، أو كيف سينتهي، أو ما إذا كنّا في مشوارنا هذا سنشهد وباءً آخر يتفشّى في المستقبل القريب؟

كانت اللّوحات فارغةً عن قصد؛ كيما يكتب الناس إجاباتهم تحت السؤال. وهكذا فعل كثيرون، غير أنّ تعليقًا واحدًا من بين جميع التعليقات التي كُتبت على عجلٍ هناك ظلَّ في ذاكرتي. فقد كتب أحدهم يقول: «أريد أن يكون لي صوتٌ مسموع».

حين يمضي كلُّ هذا أريد أن أعيش في عالمٍ مختلفٍ يمكن أن يكون لي فيه صوتٌ مسموع.

صحيحٌ أنّه كان نداءً شخصيًا، لكنّه في الوقت نفسه ومن أوجهٍ عديدةٍ صرخةٌ جمعيّة.

كان الشاعر والروائيّ الراحل راينر ماريا ريلكه قد كتب في أوائل القرن العشرين يقول: «مَن يا تُرى، إنْ أنا صرختُ، يسمعني بين طبقات الملائكة؟». كان ذلك عصرًا آخر، أمّا الآن في هذا القرن الحادي والعشرين، في عالمٍ يرزحُ تحت تعقيدٍ وانقسامٍ شديدَين، ونحن نتحرّق إلى الكرامة والمساواة، تستحوذ علينا سرعة التغيير وتسارع التقانة، فالسؤال الذي يشغلنا كلّنا هو: «مَن يا تُرى، إنْ أنا صرختُ، يسمعني بين طبقات البشر؟».

فأولئك الذين لديهم ما يقولونه، وحكايةٌ مهمّةٌ يقصّونها، يلزمون الصمت لأنّهم يخشون ألّا يسمعهم أحد. ذلك أنّهم يشعرون بالإقصاء من دوائر السلطة السياسيّة، بل من المشاركة السياسيّة والمدنيّة نفسها إلى حدٍّ كبير. فحتّى وإنْ صدحوا بمظالمهم من أعلى سطوح وِستمنستر (أو بروكسل أو واشنطن أو نيودلهي)، فإنّهم في واقع الأمر لا يتوقّعون أن يكون لصيحاتهم أدنى تأثيرٍ على السياسات العامّة. هناك قلّةٌ تُمسك بين أيديها كلَّ شيء، بدءًا من الإدارة والسلطة والثروة وحتّى البيانات والمعرفة، فيما تزداد أعداد المواطنين الذين باتوا يشعرون بالإهمال، ولا نقول إنّهم منسيّون؛ فلا أحد انتبه إلى وجودهم من الأساس. وكلّما ازداد شعورهم بالخذلان، تناقصت ثقتهم حتّى بمؤسّسات الدولة الأساسيّة. تشير إحدى الدراسات إلى أنّ أكثر من نصف الذين يعيشون في الدول الديمقراطيّة يقولون إنّ أصواتهم إمّا غير مسموعةٍ «أبدًا»، أو «نادرًا» ما تُسمع(1). ولئنْ كان هذا هو الوضع في الدول الديمقراطيّة نسبيًا، فلنا أن نتخيّل مقدار النسبة نفسها في الدول السلطويّة التي تفتقر إلى الشفافيّة، وتُسنُّ فيها القوانين من فوق، ويُقمع فيها أيُّ شكلٍ من أشكال المعارضة. فإنْ أضفنا هؤلاء إلى أولئك وجدنا أنّ هنالك أناسًا كثيرين من غير صوت. أمّا المفارقة الأكبر فهي أنّ هذا كلّه يحدث في الوقت الذي يُفترض فيه أن نكون نحن البشر أكثر ترابطًا وتعاطفًا وحرّيّةً من ذي قبل (بصرف النظر عن العرق أو الدين أو الطبقة الاجتماعيّة أو الانتماء الإثنيّ)، مع وجود فرصٍ للتعبير عن أفكارنا ومواقفنا أكثر بكثيرٍ ممّا كان يحلم به أجدادنا، بالأخذ في الاعتبار انتشار المنصّات الرقميّة والإعلاميّة. فكيف يُعقل إذن أنّه في هذه الحقبة التي يُتوقّع من وسائل التواصل الاجتماعيّ أن تمنح للجميع صوتًا مساويًا، لا يزال كثيرون جدًّا يشعرون بأنّهم بلا صوت؟

فنحن حين نُحرم من أصواتنا نُسلب قوّتنا الفاعلة (agency) على حياتنا، ونشعر باغترابٍ ممنهجٍ عن الطريق الذي اخترناه لحياتنا، وصراعنا، وتحوّلاتنا الداخليّة، فإذا بنا ننظر إلى تجاربنا الذاتية بمنظارٍ غريبٍ وكأنّنا ننظر بعينَي شخصٍ آخر، وكأنّها تحديقةٌ من الخارج. تقول الشاعرة والكاتبة والناشطة الحقوقيّة مايا أنجلو: «ما من غصّةٍ أكبر من احتمال حكايةٍ مكبوتةٍ في داخلك». وفي أوضاعنا الحاليّة نجد غصّةً شبيهةً يصاب بها الكثيرون لأسبابٍ عديدةٍ في هذا

العالم، من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه.

الحكاياتُ تؤلِّف بيننا، أمَّا الحكايات المكبوتة فهي التي تُفرِّقنا.

ذلك أنَّنا نتشكَّل من حكاياتٍ حدثت، وحكاياتٍ لا تزال تحدث، وأخرى لا وجود لها إلَّا في مخيِّلاتنا عبر الكلمات والصور والأحلام وحسّ الدَّهشة من هذا العالم من حولنا. هي الحقائق غير المزخرفة، والتأمُّلات العميقة، وأشلاء الذاكرة، والجروح غير المندملة. فأنتَ حين لا تستطيع أن تقصّ حكايتك، حين تُسكَت وتُخرس، إنَّما تُنزع منك إنسانيَّتك، ويُطعن في وجودك ذاته. يدفعك هذا الأمر إلى أن تشكَّ في عقلك، وصحَّة روايتك للأحداث، بل يخلق فيك قلقًا وجوديًّا عميقًا.

فنحن حين نفقد صوتنا، يموتُ شيءٌ في داخلنا.

✷

حين دخلتُ المدرسة الابتدائيَّة في تركيا عانيت من صعوبةٍ في تعلُّم الكتابة. قد يكون جزءًا من السبب انطوائي وعجزي عن التكيُّف سريعًا مع تلك البيئة الجديدة. لكنَّ الجزء الأكبر من السَّبب هو أنَّني كنتُ عسراء. في ذلك الوقت كان يُنظر إلى «الإعسار» على أنَّه مشكلةٌ يمكن معالجتها بالعناية المكثَّفة الصارمة. وللأسف فقد كانت معلِّمتي من الذين يعتنقون هذا الرأي، إذ تذكِّرني كلَّ يومٍ بأن أكفَّ عن استخدام «اليد المذمومة» وهي تبتسم ابتسامةً تنمُّ عن خيبة الأمل، فكانت ابتسامتها هذه أقسى عليَّ من تعنيفها لو عنَّفتني. كان هناك تلميذٌ أعسر آخر في الفصل، فكنَّا نشعر بأنَّنا رفيقان في هذه الرحلة، غير أنَّه استطاع أن ينتقل من اليد اليسرى إلى اليمنى في غضون أسابيع قليلةٍ لا أكثر. أمَّا أنا فلم أستطع، بل شعرتُ بالشلل.

في أثناء ذلك كانت معلِّمتي تحثُّني بكلِّ ما أمكنها من حوافز على أن أصحِّح سلوكي. وَعدتني بمكافآت، وحين لم يفلح الأمر لجأتْ إلى استنهاض حسّ الوطنيَّة والمسؤوليَّة والدِّين. فكيف لي أن أنسى أنَّ المرء حين يحمل العلم التركيَّ في العيد الوطنيِّ لا بدَّ من أن يضع يده اليمنى فوق اليسرى؟ وكيف أنسى أنَّ اللّٰه سبحانه وتعالى قد وضع مَلَكين اثنَين على كتفَي كلِّ إنسان، ملَكَين حافظَين يكتبان كلَّ ما يصدر عن الإنسان من حركةٍ أو فكرة؟ أمَّا الذي على الكتف الأيسر فيدوِّن كلَّ آثامنا، بما فيها الأمنيات الآثمة، وأمَّا الذي على الكتف الأيمن فيسجِّل كلَّ مناقبنا وصالحات أعمالنا. ألم يكن واضحًا أنَّني حين أختار اليد اليسرى للكتابة فإنَّني أميل إلى المَلَك الخطأ، فأنحاز إلى جانب الإثم؟

كنتُ قد تعلَّمتُ القراءة باكرًا، إذ كنتُ طفلةً وحيدةً بلا إخوة، شديدة الفضول فيما يتعلَّق

بالكتب والأسرار التي تحتويها. هكذا أخذتُ أتعلّم بهدوءٍ وبمساعدةٍ قليلةٍ من جدّتي رموز اللغة وفكّ شفراتها. أمّا الإمساك بقلم الرصاص في المدرسة وكتابة الكلمات على الدفتر فكان محضَ تعذيب. إن لم تخنّي الذاكرة فقد كنتُ واحدةً من أواخر الذين تعلّموا الكتابة بين خمسةٍ وأربعين تلميذًا وتلميذة (إن لم أكن آخرهم)، كي أستحقّ الشريطة المخمليّة الحمراء التي تضعها المعلّمة على صدرِ كلّ تلميذٍ يكتسب تلك المهارة. على أنّني ربّما لم أكن لأتعلّم الكتابة لولا فضل حرفٍ واحدٍ في الأبجديّة التركيّة.

كان حرفَ الجيم المخفّفة (وهي جيمٌ فوقها خربشة، هكذا: ğ)(2). يأتي هذا الحرف دائمًا مسبوقًا بحرفِ علّة، ورغم أنّه يعمل أحيانًا على تطويلِ حرف العلّة الذي يسبقه، إلّا أنّه لا صوت له. كلُّ حرفٍ في الأبجديّة له صوتٌ مختلف، ويعبّر عن نفسِه بوضوح، إلّا هذا الحرف. حرف الجيم المخفّفة إذن لا يتكلّم. لا يشتكي ولا يعبّر عن آرائه، ولا يطلب شيئًا. هكذا برز أمامي هذا الحرف بصَمته المحيّر وسلوكه الساهي، من بين الحروف الأخرى المتدفّقة المهذارة. كان يبدو وكأنّه حرفٌ غير مرئيّ. فإن صادفتَه في وسط الكلمة، ينبغي عليك أن تتظاهر بأنّك لم تره. ظلّ حرف الجيم المخفّفة صامتًا، أيًّا ما كان النصّ، وأيًّا ما كان السّياق. لكنّني كلّما ازداد انتباهي لهذا الحرف ازداد يقيني بأنّه يحاول أن يُخبرني بشيء. لعلّه كان يتحدّث، على طريقته، ولكنْ لا أحد كان يبالي بالإنصات إليه. هكذا إذن ربط عقلي الصغير آنذاك بين هذا الحرف غير المرغوب فيه ويدي اليسرى غير المرغوب فيها. بدا لي أنّ كليهما غيرُ مرحّبٍ به في هذا الفصل. يمكنهما إذن أن يصبحا صديقَين.

عندها شرعتُ أتدرّب في المساءات على رسم هذا الحرف، بيدي اليسرى أوّلًا، باليد الآثمة، ثمّ بيدي اليمنى المحترمة من أجل المدرسة. اخترعتُ كلماتٍ تنتهك القواعد اللغويّة، إذْ تبدأ بهذا الحرف الصامت. وهكذا أحدثتُ تغييراتٍ طفيفةً في تهجئة بعض الكلمات، فكلمة (gorilla) أصبحت (ğorilla) ، وكلمة (graffiti) أصبحت (ğraffiti). ثمّ أخذتُ أدوّنها بصبرٍ ومثابرة، لكنّني التزمتُ بالتهجئة الأصليّة في المدرسة. ونجح الأمر، وسُرّت المعلّمة أيّما سرور. ساعدني ذلك الحرف الصامت في الأبجديّة التركيّة على أن أكتسب الثقة بنفسي، وهو الذي سهّل لي الطريق لتعلُّم بقيّة النظام الكتابيّ. وحين أستذكر ما حدث الآن أستوعب أنّني أنا التي كنتُ أجد صعوبةً في الانتماء إلى جوّ المدرسة، وقد أسقطتُ حسّ الاغتراب هذا على حرفٍ جامد. لكنّ التجربة بحيويّتها وعمقها علّمتني درسًا مهمًّا في الحياة، ألا وهو أنّ المرء حين يشعر بالوحدة لا ينبغي أن ينظر في داخله، بل إلى الخارج فيبحث عن الآخرين الذين يحملون الشعور نفسه، فهناك دومًا آخرون، وإنْ استطاع أن يتداخل معهم ومع حكاياتهم فسوف يرى كلّ شيءٍ بنظرةٍ

جديدة.

وحتّى يومنا هذا وقد أصبحت روائيّة، لا تشدّني الحكايات فقط، بل الصمت أيضًا. غريزتي الأولى كحكّاءةٍ هي أن أحفر في «الهامش» لا في «المركز»، وأصرف انتباهي إلى الأصوات المهمّشة والمحرومة والمكبوتة، والتابوهات أيضًا سواءٌ أكانت سياسيّةً أم ثقافيّةً أم جندريّة. ثمّ جانبٌ في داخلي يريد أن يعرف أين تختبئ الحروف الصامتة في المجتمع.

✺

لئن كانت الرغبةُ في أن يسمعنا أحدٌ وجهًا واحدًا من العملة، فإنّ الوجه الآخر هو الاستعداد للاستماع. والوجهان مرتبطان ارتباطًا لا ينفصل. ذلك أنّنا حين نقتنع بأنّه لا أحد يهتمّ باعتراضاتنا ومطالبنا (خاصّةً من أصحاب السلطة والامتيازات) فسوف يقلُّ استعدادنا للاستماع إلى الآخرين، لا سيّما أولئك الذين يحملون آراء تختلف عن آرائنا. ومن هنا يبدأ التعثُّر في التواصل بين الأطياف الثقافيّة والأيديولوجيّة، ثمّ ينهار في نهاية المطاف.

وهكذا حين يتعطّل التواصل بينها، ينهار التعايش والاحتواء والانسجام الاجتماعيّ. بعبارةٍ أخرى نقول إنّ الشعور بأنّنا غير مسموعين سيختم على آذاننا شيئًا فشيئًا، ثمّ يختم على قلوبنا بعد ذلك.

فحين نتراجع عن استعدادنا للاستماع إلى الآخرين نحوّلهم هم كذلك إلى أشخاصٍ غير مسموعين. وهكذا تدور الدائرة، وتتفاقم في كلِّ مرّة.

حين نكفُّ عن الاستماع إلى الآراء المختلفة نتوقّف عن التعلُّم. فالحقيقة أنّنا لا نتعلّم كثيرًا من التشابه والتكرار، بل نتعلّم عادةً من الاختلافات.

معظم ما أصبحنا نفهمه في حياتنا تحصّلنا عليه عبر التفاعل مع الآراء المختلفة (التي كثيرًا ما تكون مخالفةً لنا)، وكذلك عبر التعرُّض إلى معلوماتٍ ونقدٍ ومعرفةٍ غير مألوفةٍ لنا، ثمّ غربلتها وتمحيصها داخليًا بنَباهةٍ تغذّت على النقاشات والقراءات والملاحظات.

آفةُ التفكير الجمعيّ أو فقّاعات التواصل الاجتماعيّ (3) هي أنّها تتغذّى على التكرار، غير أنّ التكرار المألوف والمريح هذا لا يسائل أفكارنا أو عواطفنا أو سلوكنا. فوظيفة الصدى هي أن يردّد ما قيل سابقًا. مَثَلُ هذا مَثل ما يحدث مع النجوم الميّتة؛ إذ ربما يبدو لنا أنّها حاضرةٌ من بعيد، لكنّها في حقيقة الأمر فارغةٌ تمامًا من الحياة والضوء. غُرف الصدى (echo chambers) إذن تحدُّ من عمق الآراء التي نعرّض أنفسنا لها، وتحدُّ من رحابتها. ما تفعله في

واقع الأمر هو أنّها تقنّن المعرفة، أو تقدّمها بالتقسيط. في الوقت نفسه تقلّل مقدار الحكمة التي نتحصّل عليها، تلك الحكمة التي تربط العقل بالعاطفة، فتنشّط ذكاءنا العاطفي، وتنشر التعاطف والتفهّم، وتسمح لنا بالخروج من حدود عقولنا الضيّقة، فنتداخل مع بقيّة البشر، نسمعهم ونتعلّم منهم. ليس الحلُّ بأنْ نغادر غرفة صدى وندخل أخرى. لا بدّ من أن نسعى إلى أن نكون رُحّلًا في أراضي المعرفة، نمضي ونمضي، ونظلُّ نتعلّم، ونقاوم تقييد أنفسنا في أيّ «غيتو» ثقافيّ أو عقليّ، وننفق وقتًا أطول في الهوامش لا في مراكز بعينها، فإنّما من الهوامش يأتي التغيير الحقيقيّ دائمًا.

لو أنّ جميع أصدقائي ومعارفي يفكّرون كما أفكّر، ويصوّتون كما أصوّت، ويتحدّثون كما أتحدّث، ولو أنّني أقرأ الكتب والصحف والمجلّات التي تنسجم مع ما قرأته سابقًا، وأتابع المواقع الإلكترونيّة التي تؤيّد آرائي المسبقة، وأشاهد المقاطع والبرامج التي تعزّز رؤيتي للعالم، ولو أنّ معلوماتي تأتي كلّها تقريبًا من مصادري المحدودة نفسها يومًا بعد يوم، لكان معنى ذلك أنّني في الحقيقة أريد أن تحيط بي صورتي المنعكسة من المرايا طوال الوقت. وهذا ليس مجرّد وضعٍ خانقٍ فحسب، بل وجودًا شديد النرجسيّة.

والنرجسيّة ليست صفةً فرديّةً فقط، بل تنطبق على الجماعات أيضًا، في ذلك الوهم المشترك بأنّنا مركز العالم. وقد تناول عددٌ من المفكّرين هذا المفهوم في القرن الماضي، لا سيّما ثيودور أدورنو وإيريش فروم. والأمر المشترك بين هؤلاء المفكّرين هو أنّهم شهدوا رأيَ العين صعودَ القوميّة والشوفينيّة والشموليّة وكراهية الأجانب. ولو نظرنا إلى تحذيراتهم لوجدناها اليوم وجيهةً سديدة. ففي قلب النرجسيّة الجمعيّة اعتقادٌ مغرورٌ بالتميّز والعظمة التي لا تقبل النقاش. والنتيجة الطبيعيّة لهذا الاعتقاد تأفُّف مستمرٌ من الآخرين. فحين أقتنع بأنّ قبيلتي أفضل وأهمّ بكثيرٍ من الآخرين سأشكّك أوّلًا في أيّ أحدٍ يرفض الاعتراف بتفوّقنا، ثمّ أحطُّ من قدره.

في هذا العالم الذي يزدادُ تعقيدُه وتحدّياته، تُصبح النرجسيّة الجمعيّة تعويضًا عن فشلنا، وأخطائنا، وخيباتنا الشخصيّة. لكنّ الأهمّ هو أنّها تقدّم الكفّة المعادلة بين شعورَين مزعجَين: الخذلان والحَيرة.

---

(1) وفقًا لدراسةٍ استطلاعيّةٍ أجراها مركز «داليا للأبحاث» (Dalia Research) بالاشتراك مع مركز «تحالف الديمقراطيّات وراسموسين العالمي» (Alliance of Democracies and Rasumssen Global)، 2018م.

(2) حرفٌ غير منطوق، من وظائفه أنّه يُطيل حرف العلّة الذي يسبقه. والطريف أنّ أخطاء الترجمة غالبًا هي التي أسفرت عن أخطاء في نطق بعض الأسماء التركيّة، مثل اسم الرئيس التركي إردوغان (Erdoğan)، إذ إنّ النطق الصحيح للاسم هو «إردؤان». (المترجم)

(3) فقّاعة التواصل الاجتماعي (social media bubble/filter bubble): مفهومٌ حديثٌ يصف الحالة التي يعيش فيها من يتعرّض إلى الآراء والأفكار نفسها (السياسيّة/الاجتماعيّة، إلخ) التي تؤيّد أفكاره وتنسجم معها، فيغدو وكأنّه يعيش في فقّاعةٍ لا يخرج منها. يحدث هذا كثيرًا بين مستخدمي الإنترنت، حيث تساعد خوارزميّات وسائل التواصل الاجتماعي ومحرّكات البحث على إظهار المحتوى الشبيه بما رأوه وتفاعلوا معه سابقًا. وثمّة مفهومٌ آخر مرتبطٌ به يُسمّى غرف الصدى (echo chambers)، ويشير إلى الحالة التي يجري فيها تضخيم الأفكار وتعزيزها عبر التكرار، وينتج عن ذلك إيمانٌ متصلّبٌ بتلك الأفكار وعدم الوثوق بأيّ شيءٍ قادمٍ من خارجها. (المترجم)

الخذلان والحيرة

ما من زاويةٍ إلّا وقد أصابها الخذلان. كيف لا، ونحن في مواجهة نظامٍ معطوب، لم نجد حتّى الآن طريقةً لإصلاحه (بدءًا من المؤسسات العالميّة العاجزة وحتّى السياسة الداخليّة المهترئة، ومن شركات التقانة الكبيرة التي تحتكر القوّة وحتّى الفجوة المتزايدة بين المدينة والريف، أو بين الفقر والثراء الفاحش). ثمّة ما ينخر في ثقة الشعوب في كلّ ذلك. فلم يسبق أن قُدّمت وعودٌ كبيرةٌ وكثيرةٌ لأعدادٍ هائلةٍ من البشر من دون أن يتحقّق منها في نهاية المطاف سوى النزر اليسير. فعلى مدى عقودٍ قيل لنا إنّنا نحن الذين نُدلي بأصواتنا نعرف مصلحتنا جيّدًا، وإنّنا نحن المستهلكين دائمًا على حقّ، وإنّنا نحن المواطنين نستحقّ أفضل الخدمات، وإنّ الدول الأخرى كذلك سوف تنهج نهجنا بفضل تقانة المعلومات والشراكات التجاريّة، وإنّ التقدّم في مجال التقانة الحيويّة سوف يطيل أعمار البشر قريبًا إلى ما فوق المئة عام. وقيل لنا إنّه مهما واجهنا من عقبات، فلن نفقد الزخم الذي اكتسبناه، فمسار التاريخ وحقائقه في صفّنا. أمّا الواقع فهو أنّ الشعوب تعرّضت للخذلان مرّةً تلو المرّة، إذ إنّهم يشعرون وكأنّهم متفرّجون على ذلك التطوّر المزعوم، لا مستفيدين منه. وهكذا بات الناس يتجرّعون يومًا بعد يومٍ إحساسًا مؤلمًا بانتفاء أهمّيّتهم. ها نحن اليوم نقف جميعًا وننظر إلى منظومةٍ سياسيّةٍ لا تنفكّ تزيد بالشعارات، وإلى سوقٍ لا يحرّكها سوى الربح والجشع، وإلى أحداثٍ قريبةٍ لا تمضي وفق المسار الخطّيّ التقدّميّ الذي توقّعناه، فندرك أنّه تحت قشرة الخطابات التي تُسوّق لنا، لا يوجد شيءٌ سوى الفراغ. لا عجب إذن أنّ نشعر بخذلانٍ عميق.

وعلى المنوال نفسِه نظلّ حيارى في ظلّ النموّ والانتشار الذي يشهده مجال الذكاء الاصطناعيّ والتعلّم الآليّ، دونما انتظارٍ للإدراك البشريّ أنّ يواكب ذلك كلّه، في الوقت الذي تتلاشى فيه الوظائف، وتتّسع الهوّة بين العمّال من أصحاب «المهارة العالية» وأصحاب «المهارة المتدنّية». علاوةً على ذلك فنحن في حقيقة الأمر لا نفهم كيف تعمل الإنترنت، غير أنّنا لا نريد أن نجهر بذلك لأنّ الجميع يبدو متصالحًا مع الوضع هذا، ما يحتّم علينا أن نتقبّله. صحيحٌ أنّنا لا نزال نشارك في الانتخابات بوصفنا مواطنين، ولكن متى يا تُرى أدلَينا بأصواتنا بوصفنا مواطنين رقميّين؟ فحين يتعلّق الأمر بالتقانات الرقميّة نجد أنّ القرارات كلّها تُتّخذ من دوننا ورغمًا عنّا. تقول إحدى الدّراسات الحديثة: «ثمّ وعيٌ عامٌّ بوجود المراقبة، غير أنّ حجم الريبة في كيفيّة جمع البيانات وسبب جمعها يشير إلى أنّ هذا كلّه يحدث من دون مساءلةٍ شعبيّة»(4). لا شكّ في أنّنا حائرون، غير أنّ الحيرة هذه قد أضحت الآن أسلوب حياة.

فإن نظرتَ إلى هذا الأمر، من أيّ زاويةٍ شئت، ستجد أنّه عبارةٌ عن وقوفٍ على أعتاب شيءٍ

ما. مساحةٌ بين أمرَين. فاصلٌ مُربكٌ بين نهايةٍ طالت وبدايةٍ غير معروفة. في هذا كتب المثقّف والمفكّر السياسيّ الإيطاليّ أنطونيو غرامشي (الذي اعتقله موسوليني) يقول من زنزانته: «الأزمةُ إنّما تكمن في أنّ القديم يموت، فيما ولادة الجديد متعسّرة. في فترة الفراغ هذه تنشأ أنواعٌ كثيرةٌ من الأعراض السقيمة».

ها نحن أيضًا نجد أنفسنا في سقمٍ من حالة الحيرة التي تحيط بنا ونحن بين البين(5)، فلا نحن قادرون على التّخلي عن النظام القديم الذي زاد من تعاستنا، ولا نحن قادرون على بناء عالمٍ جديدٍ من واقع الدروس التي تعلّمناها. لقد أنهَكَنا القلق، واستنفَدَنا الغضب، واندحرت عقولنا وقوانا.

تقول العجائز التركيّات والكرديّات في الأناضول: «حذارِ من الأعتاب»، إذ ينظرن إلى منطقة الانتقال هذه على أنّها موطئٌ للجنّ، تلك الكائنات المخلوقة من نار، المعروفة بنزقها وتقلُّباتها. يشدُّني التراث الشفويّ عمومًا، ويثير اهتمامي اعتبارُ العتبة في تلك الثقافة غير المكتوبة حيّزًا للمراوغة والغموض والتقلُّب. وإنْ شئنا استخدام المجاز نفسه، فمن المُخيف أن نجد أنفسنا فجأةً في منطقةٍ لا يُمكن التنبؤ بما فيها. أمّا الأمر الذي يخيف أكثر من ذلك فهو أنْ نكون هناك وحدنا. فالانتماء إلى مجموعةٍ يُشعرنا بثباتٍ أكبر، ويخفّف مبعث القلق فينا. وهذا ما سلّط عليه الضوء إيريش فروم حين أشار إلى أنّ الإنسان بعد أن يُصاب بالضعف ويَفقد الأمان يسعى إلى الحصول على حسٍّ جديدٍ من الأمان وقيمة الذات، وهو إنّما يفعل ذلك بوضع نفسه ضمن شريحةٍ كبيرةٍ من الناس. «فهو لا شيء، لكنّه يصبح كلّ شيءٍ حين يستطيع أنْ يعرِّف نفسه ضمن أمّةٍ ما، أو ينقل نرجسيّته الشخصيّة إلى تلك الأمّة».

وفقًا لإيريش فروم، فإنّ النرجسيّة الجمعيّة تلبس تارةً لبوس القوميّة، وتارةً أخرى ترتدي قناع النرجسيّة الدّينيّة حين يؤمن أصحاب ديانةٍ ما إيمانًا راسخًا بأنّهم أعزُّ شأنًا عند اللّه، وأنّهم أحقُّ بالجنّة من غيرهم، وأنّهم أكثر استقامةً من الآخرين، لا لشيءٍ إلّا لأنّهم وُلدوا لهذه الديانة. كما يمكن أن تَظهر النرجسيّة في أشكالٍ أخرى من تحديد الهويّة الجمعيّة وفقًا لظروف الزمان والمكان. ففي كلّ حالة، «يُرضي المرءُ نرجسيّته بالانتماء إلى المجموعة وربط هُويّته بها. وعليه فإنّ عَظمته لا تتحقّق من كينونته، فهو نَكِرة، وإنّما تتحقّق من انتمائه إلى أروع جماعةٍ على وجه الأرض».

ونجد اليوم أنّ وسائل التواصل الاجتماعيّ والاتّصالات الرقميّة قد سرّعت من وتيرة النرجسيّة الجمعيّة وأجّجتها. فلقد سَلبنا قدرتنا على الاستماع والتعلّم ونحن عالقين في دهاليز أصدائنا (6). من جهةٍ أخرى لم يَعُد للنقاش العميق مكان، لا في الفضاء العامّ ولا المنابر

الرقميّة، في الوقت الذي تنتشر فيه اليقينيّات المتصارعة، ذلك أنّ الإعلام عادةً ما يضخّم الثنائيّات والأفكار المتناحرة. لذلك أصبحنا نشاهد كلّ يوم تقريبًا على شاشات التلفاز أو قنوات اليوتيوب أشخاصًا من معسكراتٍ فكريّةٍ متعاكسة، يتحدّثون ويصرخون في بعضهم البعض. فهم لم يدخلوا تلك النقاشات لكي يستمعوا أو يتعلّموا، وإنّما ليبرهنوا على حججهم وآرائهم، وليخطبوا فينا ويشجبوا كلّ ما لا يوافق آراءهم. وأمّا نحن المشاهدين فلم يَعُد لدينا أيّ استعدادٍ لاستكشاف شيءٍ جديد، اللّهم إلّا أنْ نرى «صاحبنا» يهزم «صاحبهم».

في أثناء ذلك تلتقط الخوارزميّات تفضيلاتنا، حتّى تمرّر لنا وجهات النظر نفسها يومًا تلو الآخر، غير أنّها في الوقت نفسه تضخّم الآراء الواردة فيها وتكثّفها شيئًا فشيئًا. فلو كانت لديك على سبيل المثال ميولٌ معاديةٌ للساميّة أو كارهةٌ للإسلام أو للمرأة أو للمثليّين، فسوف تظلّ تلك الخوارزميّات تغذّيك بالمزيد من المواد التي تدعم تلك الميول، فتقنعك شيئًا فشيئًا بأنّ شكوكك لها ما يبرّرها، وأنّ اليهود أو المسلمين أو النساء أو المثليّين هم أساس البلاء. وكلّما تابعت ذلك المحتوى ازددتَ يقينًا بسعة اطّلاعك ومعرفتك. ستظلُّ تجمع «الأدلّة» وتسجّل الانتصارات في مبارزاتٍ جداليّةٍ مع أعداء وهميّين في عقلك. ألا تُلاحظ أنّ المهووسين بنظريات المؤامرة والذين تستهويهم الخطب الناريّة والحوارات الفرديّة الداخليّة غالبًا ما يعرفون قدرًا كبيرًا من المعلومات عن الموضوع الذي يشغلهم، وأنّ أغلب هذا الذي يعرفونه إمّا معلوماتٌ مغلوطةٌ تمامًا أو معلوماتٌ «مُفَلْتَرة» تناسب آراءهم المسبقة؟

حين يشعر المرء بأنّه غير مسموعٍ وغير مدعومٍ وغير مقدَّر، قد يصبح ساخطًا، وإنْ التزم السخطَ فقد يعاف الاستماع إلى الآخرين، ما يُعيق قدرته على التعلُّم. فسوف يقلُّ تفاعله مع النظريات والآراء التي لا تتوافق مع آرائه، ويصل به الأمر في نهاية المطاف إلى أنْ يكفَّ عن الحديث مع من يختلف معهم، إذْ ما الذي يدفعه أصلًا إلى الثقة بهم؟

فحين يَضعُف التعايش في أحد المجتمعات يغدو مجتمعًا مُستَقطبًا ومُسيَّسًا للغاية، مجتمعًا شديد التحفُّظ من «الجانب الآخر ونواياه». هذا التوتُّر الدائم والعدائيّة المتصاعدة يؤثّران تأثيرًا سلبيًا في النظام الديمقراطي، الذي هو في الأساس نظامٌ يُعنى بالتفاوض وحلول الوسط، بالتعدُّديّة وحلّ النزاعات، بالضوابط وحفظ التوازنات.

في المجتمعات التي تعاني من تصدُّعٍ شديدٍ يحرمها من تقدير قيمة التنوُّع والتعدُّديّة، يُصبح الخصوم أعداء، وتغدو السياسة ساحةً للمجازات الاحترابيّة، أمّا الذي يفكّر ويتحدّث بطريقةٍ مختلفةٍ فليس سوى «خائن».

ليس صدفةً أنّ الدّهمائيّين (demagogues) في العالم أجمع يبذلون قصارى جهدهم في استثارة الاستقطاب وإشعال جذوته. فهم يدركون تمامًا أنّهم سوف يستفيدون منه. يطيبُ لهم أنّ يزداد الانقسام والخلاف والإقصاء المتبادل. يحبّون أن يفيض النهر الفاصل بين «نحن» و«هم» فتسوقنا المياه بعيدًا عن بعضنا البعض، فلا نرى أو نسمع بعضنا البعض مع صوت التيّار الهادر. تلك المياه الهادرة التي تغطّي على أصواتنا الفرديّة وحكاياتنا الخاصّة أشبه بالموسيقى الجميلة التي يطرب لها الدهمائيّون. فكلّما قلّت إمكانيّة التواصل والتعارف والتعاطف بين الناس، قلّ تقديرنا لإنسانيّتنا المشتركة، وكلّما تراجعت فضاءاتنا المشتركة في تحقيق العدل واحتواء الجميع، ازدادت سعادة الدّهمائيّين.

هل أنت منّا أم منهم؟

هل أنت من داخل الجماعة أم غريبٌ عنها؟

يُقلقني كثيرًا ظهور هذه الأسئلة في خطاباتنا السياسيّة وممارساتنا الاجتماعيّة (تلميحًا لا تصريحًا، وإنْ كان تلميحًا قويًّا)، ربّما لأنّني كنتُ طوال حياتي أشعر بأنّني داخل الجماعة وخارجها في الوقت نفسه.

*

فقد وُلدتُ في فرنسا، ونشأتُ في تركيا، وأمضيت قدرًا كبيرًا من شبابي الأوّل في إسبانيا والولايات المتّحدة، والآن أعيش مواطِنةً في بريطانيا التي اخترتها وطنًا لي. أمّا الأرض التي قضيتُ فيها أغلب سنين حياتي طفلةً وامرأةً فهي في مكانٍ آخر... إنّها أرض الحكايات. ذلك العالم الساحر الذي تتغيّر فيه ألوان السماء وكأنّها تبدّل مزاجها، وكلُّ شيءٍ يتحدّث بصوته، سواءٌ أكان حصاةً صغيرةً أم جبلًا عملاقًا. في تلك الأرض الشاسعة لا توجد حدودٌ ولا جوازات سفرٍ ولا شرطةٌ ولا أسوارٌ شائكة. فلا حاجة إلى أيّ شيءٍ من ذلك.

لطالما كان سؤال «من أين أنتِ؟» مُشكِلًا بالنّسبة إليّ، إذْ كان يبدو لي سؤالًا شخصيًّا للغاية، لكنّه في الوقت نفسه شديد التّعقيد. ولقد قضيت فترةً طويلةً من حياتي كان فيها هذا السّؤال هو الوحيد الذي أخشى سماعه.

كنتُ أودُّ أن أقول: «أنا من أماكن متعدّدة. من مدنٍ وثقافاتٍ كثيرة، تعدُّديّةٍ ومتنوّعة، لكنّني في الوقت نفسه من بقايا تلك المدن وحطامها، من ذكرياتها ونسيانها، من حكاياتها وصمتها».

ولو فرضنا أنّني قدّمتُ هذا الجواب، فعلى الأرجح لن يكون جوابًا مُرضيًا للسائل. سيصرُّ على

٢٧٠٧٢٠٩٠٨٦

سؤاله ويقول: «نعم، ولكن من أين أنتِ حقيقةً؟».

كنتُ أعرف هذا القالب الجاهز، على طريقة أسئلة الاستبانات. فلا يمكنك إلّا أن تختار كلمةً واحدةً في تلك الخانة، كلمةً واحدةً لا أكثر. وفي عصرنا هذا، عصر السرعة والبساطة والنظرات الخاطفة، لا يوجد الكثير ممّن لديهم الوقت أو الصبر على الإجابات الطويلة. كان المطلوب منّي أن أقول ببساطة: «تركيا»، فيرتاحون لهذا الجواب ويهزّون رؤوسهم: «بلى، توقّعتُ ذلك من لهجتك».

كثيرًا ما كنتُ أتساءل عمّا يكمن في اللّهجة. فهل الأمر حضورٌ للهُويّة أو المسار أو التاريخ، أم إنّه بالأحرى غياب، نوعٌ من الاغتراب، أو الانسحاب، أو المكان الفارغ الذي يأبى الامتلاء؟ فهل المهاجر ليس سوى لهجته؟ أم إنّه أكثر من ذلك، أو هل باستطاعته أن يطمح إلى أن يكون أكثر من ذلك؟ لا ننكر أنّ لهجاتنا مهمّةٌ للغاية بالنّسبة إلى كينونتنا، وهي بالتّأكيد عزيزةٌ علينا. فهي أثرٌ باقٍ لا ينفصم من الطرق التي سلكناها، وعلاقات الحبّ التي مررنا بها ولم ننسها، والندوب التي ما زالت باقية، تؤلمنا. لكنّ هذا كلّه لا يعني أنّنا مِن لهجاتنا.

فالإنسان، كلُّ إنسان، كائنٌ معقّد، طبقاتٌ بعضها فوق بعضٍ من أفكارٍ ومشاعر وتصوُّراتٍ وذكرياتٍ وردود أفعالٍ ورغباتٍ وأحلام. وحين يضعنا أحدٌ في صندوقٍ محدّدٍ فإنّه يُنكر علينا حقيقتنا. ونحن بدورنا حين نضع الآخرين في صناديق محدّدةٍ نُنكر عليهم حقيقتهم.

الانتماءُ ليس حالةً واحدةً ثابتةً كما يقول القوميّون الدّهمائيّون، ليس هُويّة قارّةً موشومةً على جلودنا. الانتماء اختبارٌ مستمرٌ للذات، ومراجعةٌ حيويّةٌ لموقعنا وهُويّتنا والمكان الذي نطمح إلى أن نكون فيه. فالمجموعات والقبائل شأنها شأن الجماعات والدول، ينبغي تخيُّلها على أنّها كياناتٌ معقّدةٌ متباينةٌ سائلة، مستمرةٌ في التغيُّر والتكيُّف والتطوُّر.

في بعض الأحيان قد يكون المكانُ الأنسب لك وراثيًا وإثنيًا أقلَّ مكانٍ تشعر بالانتماء إليه. فيحدث أن تشعر بالوحدة الشديدة بين الذين يشبهونك في الملامح ويتحدّثون لغتك. جديرٌ بالذكر أنّ مواطنين كثرًا في العالم اليوم لم يَعُد من السّهل عليهم أن يتعرّفوا على أوطانهم، فيمشون كالغرباء في أوطانهم الأمّ. ولكن كيف لنا أن نناقش هذا الحسّ بالانسلاخ أو التشرُّد بينما لا توجد كلمةٌ واحدةٌ تصفه في ذخائرنا اللغويّة؟

لا أعرف كلمةً أقرب إلى هذا المعنى من «النّفي exile».

✺

لم تكن هذه الجائحةُ منذ بدايتها مجرّد أزمةٍ صحّيّة، أو غيابِ كفاءةٍ سياسيّة، أو نقصٍ في الجهوزيّة وتأخُّر استجابة (رغم أنّ هذه جميعَها كانت موجودةً طبعًا). أمّا ما بعد الجائحة فلن يقتصر على التدهور الاقتصاديّ وازدياد البطالة والتدنّي في مستويات المعيشة. فما نمرّ فيه يُعدّ أزمةً في المعنى كذلك.

لقد دأبنا سنين طويلةً نعتمد في تعاملاتنا الاجتماعيّة والسياسيّة على القاموس القديم نفسه الذي وُضع أغلبُ ما فيه في فترة ما بعد الحرب الباردة. وهكذا بِتنا لفرط اعتيادنا على الرجوع إلى هذا المجلّد السّميك لا نشعر في الحاجة إلى البحث عن بعض الكلمات الأساسيّة، فقد اطمأنّت أنفسنا إلى أنّنا نعرف معانيها جيّدًا. أمّا الآن فقد هبّت ريحٌ قويّةٌ أخذت تقلّبُ الصفحات صفحةً تلو الأخرى بسرعة، وإلى جانب القاموس شمعةٌ متّقدةٌ لا تلبثُ أن تنقلب فوقه قبل أن يرتدّ إلينا طرفُنا. قاموسُنا يشتعل، فنمدّ أيدينا لكي نُنقذ ما يُمكن إنقاذه، غير أنّ صفحاتٍ كثيرةً قد احترقت، ولا بدّ من أن نبدلها. من هنا تظهر الحاجة إلى إعادة تعريف بعضٍ من مفاهيمنا الأساسيّة. والمفارقةُ أنّ أبسطَ المفاهيم أصعبُها على التعريف.

فما الدّيمقراطيّة؟

كنّا نَحسبُ أنّنا نعرف ما تعنيه، أمّا الآن فلم نَعُد متأكّدين. لقد أدركنا مع الوقت أنّ الدّيمقراطيّة أكثرُ هشاشةً ممّا افترضنا في بادئ الأمر؛ فهي منظومةٌ من التوازنات والضوابط التي تحتاج إلى رعايةٍ وتعزيزٍ مستمرّين.

وما تعريف «الطبيعيّ»؟

فهل نودّ العودة إلى الشّكل الذي كانت عليه الأمور قبل الجائحة؟ هل كان ذلك الوضع «طبيعيًا»؟

وما الشّعادة؟

تُرى ما القيم التي ينبغي علينا أن نضعها منذ الآن في قمّة أولويّاتنا؟ أهي الثروة المتراكمة والحساب المصرفيّ الضخم، والاتّفاقيّات التجاريّة الكبيرة، ورفع القيود الماليّة، والمشروعات التجاريّة المرتكزة على الفائدة... أم إنّها الرّعاية الاجتماعيّة والصحّيّة، والتنوّع والإدماج والتفاعل البشريّ الإيجابيّ مع المنظومات الطبيعيّة، والمشروعات التجاريّة المرتكزة على الهدف؟

فالقرار الذي نتّخذه اليوم ستكون له تبعاتٌ طويلة الأمد تستمرّ جيلًا بعد جيل. إذن، ما الذي

ينبغي أن يحوز على اهتمامنا: «الآن هنا» أم «غدًا هناك»؟ هل نستطيع أن نضحّي بعادات حياتنا من أجل مصلحة الأجيال القادمة؟

وما الأنانيّة؟

فهل نوافقُ على شرائح الرّقابة المزروعة في أجسادنا كيما تستطيعَ حكوماتُنا أن تراقب صحّة المواطنين مراقبةً لصيقةً في حال نَشْبت جائحةٌ أخرى؟ إلى أيّ درجةٍ نحن مستعدُّون للتخلّي عن حريّاتنا، إنْ وُجدت؟

وما الحرّيّة؟ وما حقوقي وواجباتي أنا المواطن؟

وهلمّ جرًّا.

كنّا نفترض أنّنا نملك التعريفات الصّحيحة لهذه المفاهيم الجوهريّة، غالبًا بفضل الأجيال التي سبقتنا، أولئك الذين بذلوا الجهد الكبير. كنّا نظنُّ أنّنا لن نُضطرَّ إلى التعامل مع «الأساسيّات»، بما أنّنا تخطّينا تلك المرحلة التاريخيّة بمسافات. أمّا الآن وقد تَلف نصفُ قاموسنا، فعلينا أن نعيدَ التّفكير في ما سنكتبه في القاموس.

إنّه مُفترقُ طرق، شيءٌ أشبه بالعَتَبة. وفي الوقت الذي نُدرك فيه أنّنا لا نستطيع ولا ينبغي لنا أن نعود إلى الوراء (إلى كيف كان الوضع قبل الجائحة)، نجد أنفسنا أمام طريقَين لا ثالث لهما. فعلى الجانب الأوّل يمتدُّ حسُّنا القوميّ والنزعةُ إلى حماية الذات الجمعيّة، ووضع «أهل بلادي» في قمّة الأولويّات (ولقد دأبَ الزعماءُ السلطويُّون يستخدمون الانقسامَ عُذرًا لتعزيز قوّتهم والتحكُّم بالمجتمع المدنيّ والانكفاء على الذات). وعلى الجانب الآخر طريقٌ تمتدُّ نحو التواصل والتعاون الدّوليّ، وروحٍ من الإنسانويّة للتعامل مع التحدّيات العالميّة الكبرى، بدءًا من الأزمات المناخيّة وحتّى الفقر المتصاعد، ومن الإرهاب السيبَريّ حتّى الجانب المظلم من التقانات الرقميّة. ورغم أنّ الخيار بين هاتَين الطريقَين إنّما يتشكّل وفقًا لعوامل اقتصاديّةٍ وسياسيّة، إلّا أنّه يعتمد كذلك على مفهومٍ جدَليّ آخر: الهويّة.

فمَن أنا؟

هل لديّ هُويّةٌ واحدة؟ هُويّةٌ مبنيّةٌ على الجنسيّة، أو الإثنيّة، أو الدّين، أو الطبقة، أو الجندر، أو الجغرافيا؟ أم إنّني في الأساس مزيجٌ من الانتماءات المتعدّدة والولاءات الثقافيّة والمواريث والخلفيّات والمسارات المتنوّعة؟

الطريقةُ التي نعرّفُ بها هُويّتنا ستحدّد خطواتنا التالية.

*

كتبَ الشاعر اليونانيّ قسطنطين كفافيس ذات مرّةٍ يقول: «ولسوف تُلاحقك المدينة دومًا» حتّى وإنْ رحلتَ إلى دولةٍ أخرى وساحلٍ آخر. أمّا المدينة التي تلاحقني أنا دومًا فهي إسطنبول.

إذ إنّني إسطنبوليّةٌ في قلبي، حتّى وإنْ لم أغد أسافر إليها. لديّ حبٌّ واهتمامٌ عميقان بهذه المدينة، وأعتقدُ أنّه أمرٌ واضحٌ تمام الوضوح في رواياتي. أشعرُ بأنّ إسطنبول تصحبُني أينما ولّيتُ وجهي؛ فنحن لا نتخلّى عن الأماكن التي نحبّها لمجرّد أنّنا انفصلنا عنها جسديًا.

إنّما الأوطانُ قِلاعٌ مقدودةٌ من زجاج، ولكي تغادرها لا بدّ من أن تكسر شيئًا، قد يكون جدارًا، أو واحدًا من التقاليد الاجتماعيّة أو الأعراف الثقافيّة، وقد يكون حاجزًا نفسيًا، أو قلبًا. وذاك الذي كسرته سوف يظلُّ يلاحقك. أن تكون مهاجرًا يعني أن تحمل طوال حياتك كِسَرًا من الزجاج في جيوبك. لعلّه من السّهل أن تنسى وجودها، لخِفّة وزنها وصِغر حجمها، فتمضي في حياتك وطموحاتك ومخطّطاتك، غير أنّ أقلّ احتكاكٍ يكفي لكي تذكّرك الكِسرُ بوجودها، ولسوف تجرحك جرحًا عميقًا.

الأوطان التي غادرناها تشبه الأيمانَ التي حلفناها ونحن أطفال. ربّما لم نَعُد نؤمن بها، وربّما لم نَعُد نفكّر فيها كثيرًا، لكنّها لا تزال تعقِد ألسنتنا. هي الأسرار التي نحتفظ بها، والإجابات التي ابتلعناها، والآلام التي لم نكشف عنها، والجروح القديمة التي نُكِئَت، والحبُّ الأوّل الذي لم يُنسَ. ومهما بلغ بنا العناد والإصرار على التخلّي عن أوطاننا (إذ يعلم اللّه كم ضجرنا ممّا فيها من عَبَثٍ وقسوةٍ وحماقاتٍ وعداوات)، فالحقيقة هي أنّها لن تتركنا أبدًا. كالظلال ترافقنا إلى أطراف الأرض الأربعة، تسبقنا حينًا وتتخلّف عنّا حينًا آخر، لكنّها لا تبتعد كثيرًا. لهذا السّبب (حتّى بعد سنواتٍ من هجرتنا وانتقالاتنا) يمكن للمرء إن أنصتَ جيّدًا أنْ يرصدَ فينا آثارًا من أوطاننا في لَهجاتنا المكسّرة، وأنصاف ابتساماتنا، وسكتاتنا المضطربة.

نعم، إذن، أنا إسطنبوليّة.

لكنّني متعلّقةٌ كذلك بالبَلقان. فإنْ جَمَعْتَني بكاتبٍ من أصولٍ يونانيّةٍ أو مَجَريّةٍ أو بوسنيّةٍ أو ألبانيّةٍ أو رومانيّة، ستندهش من كثرة المشتركات بيننا. وعلى المنوال نفسه أحمل في روحي أشياء كثيرةً من الشرق الأوسط. فإن وَضَعْتني إلى جانب كاتبٍ من أصولٍ سوريّةٍ أو لبنانيّةٍ أو أردنيّةٍ أو مصريّةٍ أو فلسطينيّةٍ أو إسرائيليّةٍ أو تونسيّة، ستندهش أيضًا من كثرة المتشابهات بيننا.

وفي الوقت نفسه أنا من أهل لندن، مواطنةٌ بريطانيّةٌ أشعر بارتباطٍ عميقٍ ودافئٍ بهذه البلاد

التي وجدتُ فيها حرّيّةَ الكتابة. فأنا أوروبيّةٌ بالمولد، والاختيار، والقِيَم التي أعتنقها. ورغم ما بات يقوله لنا السياسيّون في الفترة الأخيرة، يطيب لي أن أرى نفسي مواطنةً من هذا العالم، مواطنةً من هذا الكوكب، رُوحًا عالميّة.

لديّ انتماءاتٌ متعدّدة.

سيقولُ الشّعبَويّون: «تلك رفاهية. فالسّفرُ ليس في متناول الجميع».

وهذا صحيح. ليس في مقدور الجميع أن يتنقّلوا بين الثقافات، ولكن ليس كلُّ من يستطيع ذلك يكون بالضرورة واحدًا من «النخبة». في أعقاب هذه الجائحة سيقلُّ عدد الذين يستطيعون السفر إلى الخارج، والذين يلتحقون بالدراسة في الخارج، ويقلُّ ترحيب الدول بالعمالة المهاجرة. لشدّ ما يُقلقني أن أرى الجدران وهي ترتفع أكثر فأكثر.

الانتماءاتُ المتعدّدة إنّما تتعزّز بالتّجارب الثقافيّة، لكنّها ليست حكرًا على الذين يسافرون. فهي في حقيقتها موقفٌ وطريقة تفكير، ليست مجموعة أختامٍ على جواز السّفر. الأمرُ يتعلّق بالتفكير في نفسك وإخوتك في الإنسانيّة على أسسٍ سائلةٍ، لا تصنيفاتٍ جامدة.

فقد يُولد المرء وينشأ ويتعلّم ويتزوّج في حدود البلدة نفسها، لكنّه يمتلك انتماءاتٍ متعدّدةً عبر حكايات عائلته، وانتماءاته الثقافيّة، وتفضيلاته الاجتماعيّة، وآرائه السياسيّة، وصِلاتِه الرياضيّة والفنّيّة، وما إلى ذلك.

إنّ الإنسان، كلُّ إنسان، لا حدود له، في داخِله جَمْهَرات(7).

ثمّ تداخلٌ أكبر بين البشر، والاحتماليّة لإيجاد أرضيّةٍ مشتركةٍ بين أصحاب الانتماءات المتعدّدة أكبر ممّا هي لدى أصحاب الهُويّات التي تُقصي بعضها بعضًا. فلماذا إذن نادرًا ما نعلّم أطفالنا أنّ لهم انتماءاتٍ متعدّدة، وأنّ في وسعهم أن يحبّوا أوطانهم وجماعاتهم من دون أن ينسَوا أنّهم مواطنون للبشريّة جمعاء؟

✺

وُلدتُ في فرنسا. كان منزلنا الأوّل في ستراسبورغ، في شقّةٍ ضمن مجمّعٍ سكنيٍّ شاهق. كان شعاع الشمس يتناثر عبر الستائر في الصباحات نصف العام، فيداعب بأصابعه الذهبيّة الطويلة أهداب الأريكة قبالة الجدار، وأغلفةُ الكتب مبعثرةٌ هنا وهناك. كان لدينا دائمًا زُوّار (مهاجرون، وطلّاب، وفنّانون لا يكادون يملكون فِلسًا يلعبون به). كانوا يقرأون ويتناقشون حول ألتوسير وغي ديبورد وجون بول سارتر، وقليلًا حول سيمون دو بوفوار (وهذا فرقٌ لم

ألحظه إلّا بعد فترةٍ طويلة). كانت هناك روائح طبخ متنافسةٌ تسبح في الهواء (تركيّة، لبنانيّة، مغربيّة، جزائريّة، سوريّة، مَشرقيّة). وكذلك رائحة السجائر، سجائر غولواز ذات الرائحة النفّاذة. كان الثابتُ بين جدران بيتنا تلك النقاشاتُ الحامية عن التغيّر الاجتماعيّ والعدالة الاجتماعيّة. فالثورةُ بالنّسبة إلى أبويّ وأصدقائهما في ذلك الوقت كانت فعلًا، لا اسمًا.

غير أنّ هذا الوضع لم يدم طويلًا؛ فما لبث والداي أن انفصلا. بقيَ والدي في فرنسا، وقرّرتْ والدتي أن تعود إلى تركيا. بالنّسبة إليها كانت تركيا هي الوطن، أمّا أنا فقد كانت بالنّسبة إليّ بلدًا جديدًا أكتشفه. وصلْنا إلى بيت جدّتي لأمّي في أنقرة، في حيٍّ محافظٍ جدًا وأبَويٍّ جدًا. كان بيتًا من طابقَين، أخضرَ بلون المريَميّة، وفيه حديقةٌ من ثلاثة جوانب تتوزّع فيها أشجار الفاكهة، من كرزٍ وتفّاحٍ وإجاص، وفرصادٍ يُلطّخ يديك مع أبسط لمسة. على الجدران خَرَزاتٌ تمنع الحَسد، ورصاصٌ ذائبٌ في قدورٍ نحاسيّة، وملحٌ منثورٌ في كلّ زاوية. كنتُ حين أنهض صباحًا من سريري أفكّر بحرصٍ أين أضع قَدَمي؛ فقد يكون هناك جنّيٌّ نائمٌ على الأرض. وفي العصر تتوافد النسوة من كلّ أطراف الحيّ، ينزعنَ شعور سيقانهنّ بشمعٍ منزليّ الصُّنع مع وجبةِ القِيل والقال. لم أكد أصدّق أذنيّ لفرط بذاءة النكت التي كنّ يتبادلنها. أمّا المساءاتُ فقد تتخلّلها صلاة، ومزاجٌ رزين، وكلماتٌ بالعربيّة لا أفهمها. كنتُ مشدوهةً من هذا العالم الجديد الذي قُذفتُ فيه، عالمٍ من الواضح فيه أنّ النساء لا يُعامَلن بالمثل، ومع ذلك لم يكنّ ضعيفاتٍ أو خَجولات.

ثَمّ أمرٌ مهمٌّ في حكايتنا لا بدّ من أن أذكره. فقد تزوّجتْ والدتي وهي لا تزال طالبة، فارتكبتْ خطأً جسيمًا بانسحابها من الجامعة، وقد تكدّرتْ جدّتي من هذا أيّما كدر. ذلك أنّ جدّتي كانت ترى في المدرسة ثروةً لا تُضيَّع، غير أنّها أُخرجت من المدرسة لمجرّد أنّها فتاة. أمّا والدتي التي انساقت وراء مثاليّات السبعينيّات، فلم تكن ترى قيمةً كبيرةً في الالتحاق بـ«جامعةٍ برجوازيّة»، فانسحبتْ منها من دون أن تُخبر أحدًا. وهكذا حين وجدتْ نفسها بعد سنواتٍ شابّةً مُطلَّقة، لم تكن لديها شهادةٌ ولا وظيفةٌ ولا مسارٌ مهنيٌّ واضح. وفي مثل هذه الحالات تُزوَّجُ المطلَّقات فورًا، غالبًا من شخصٍ يكبرهنّ سنًّا. هذه هي النصيحة التي كانت تقدّمها الجاراتُ لولا تدخُّل جدّتي، فقد حثّتْ ابنتها على العودة إلى مقاعد الدراسة والتّخطيط لمهنةٍ لها في الحياة. فلمّا اعترض الأقارب والجيران على هذه الفكرة المتطرّفة وذكّروها بأنّ ابنتها امرأةٌ مُطلَّقةٌ ولديها طفلة، قالت جدّتي: «أنا سأعتني بحفيدتي، إلى أن تكون أمُّها جاهزة».

وهذا ما حدث إلى أن بلغتُ العاشرة، إذْ تكفّلت جدّتي بتربيتي وعادتْ أمّي إلى الجامعة وأخذت دروسًا إضافيّة، إلى أن تخرّجت بامتياز. ولم تتوقّف عند هذا الحدّ، بل استمرّتْ في الدراسة وتعلّمتْ ثلاث لغاتٍ أخرى، ثمّ تقدّمتْ لامتحانات وزارة الخارجيّة. كان هذا في زمنٍ تُعدُّ

فيه الوظيفة الدبلوماسيّة ضربًا من الإرث العائليّ الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء.

في اليوم الذي تلقَّينا فيه خبر نتيجتها الجيّدة في الامتحانات خرجنا نحتفل (جدّتي وأمّي وأنا) في حديقة الملاهي الوحيدة في أنقرة، بجانب بحيرةٍ اصطناعيّةٍ تتنزّه حولها الأسر وهي تتسلّى ببذور عبّاد الشمس، وجلسنا في مطعمٍ ذي شرفةٍ خارجيّة. كان ذلك زمن الفوضى السياسيّة والعنف المتصاعد، من قنابل تنفجر في الشوارع، وعمّالٍ يُطلق الرصاص عليهم أمام بوّابات المصانع، وتأزّمٍ مستمر، وخوفٍ يطفو في الهواء. لكنّ العالم بدا رائقًا صافيًا في تلك اللحظة الهاربة. كانت أمّي تشكر جدّتي بصوتٍ مختلجٍ على الدّعم الذي قدّمته لها طوال تلك السنوات، في حين قالت جدّتي شيئًا يعود إلى ذاكرتي اليوم في هذا العالم المنكوب بالجائحة.

قالت جدّتي: «لا تشكريني. ركّزي في تحسين حياة ابنتِك. إنّما نحنُ نرثُ ظروف حياتنا، ثمّ نحسّنها للجيل التالي. لم أتعلّم، فأردتُك أن تصبحي أفضل منّي. والآن ينبغي عليكِ أن تفعلي كلّ ما في وسعك لكي تحصل ابنتك على أكثر ممّا لديكِ. أو ليست هذه سنّة الحياة؟».

بالنّسبة إلى جدّتي، لم يكن ما فعلَته تضحيةً شخصيّة. كان شيئًا من الأشياء التي ينبغي أن تحدث. في الوقت نفسه كانت تنصحني، تذكّرني بأن أجتهد كي يتعلّمَ أبنائي أفضل منّي ويكون مستقبلهم أفضل من مستقبلي.

هي ذكرى أعود إليها لأنّها تقف في تضادٍّ تامٍّ مع ما يحدث في العالم هذه الأيّام. لقد قاست الأجيال السابقة صعابًا شديدةً وابتلاءاتٍ من ضمنها الحربان العالميّتان والكساد العظيم والحرب الباردة. لكنّهم ظلّوا مقتنعين بأنّ التّعليم كفيلٌ بمنح أطفالهم فرصةً أفضل. كان لأمّي وجدّتي إيمانٌ راسخٌ بأنّ الغد من حيث هو سيكون أكثر إشراقًا من الأمس. كانتا تؤمنان بأنّ تركيا سوف تصبح بمرور الوقت وتزايد المواطنين المتعلّمين بلدًا ديمقراطيًا تمامًا، وعلمانيًا.

تلك الثقة في التقدّم إنّما كانت في جوهر نظرتهما إلى العالم. فلو أنّ كلّ جيلٍ بذل أفضل ما عنده ولم يوفّر جهدًا في تحسين الظروف التي ورثها من آبائه، سيصبح العالم شيئًا فشيئًا مكانًا أكثر إشراقًا.

أمّا اليوم فلم يَعُد يوجد هذا الإيمان بأنّ غدًا سيكون أفضل من الأمس.

هذا ما وَصَفه عالم الاجتماع السياسيّ زيغمونت باومان بأنّه «النقطة التي وصل إليها الآباء»، إذ يجري تخيّلها على أنّها «نقطة البداية للأبناء، نقطةٌ ذات طرقٍ كثيرةٍ تمتدُّ منها، كلُّها تقود إلى الأعلى». لقد ظلّ الناس يؤمنون بأنّ الشباب سوف يصلون أبعد ممّا وصل إليه آباؤهم، وفقًا لرأي باومان. «أو هكذا عُلّموا ولُقّنوا. لم يوجد شيءٌ يجهّزهم للعالم الجديد الصعب المنفّر، عالم

التدهور وتدنّي قيمة الجدارة، والأبواب التي تُعرض أمام عينيك وتُغلق، وتطاير الوظائف وتمكّن البطالة، وسرعة زوال الآفاق، وطول عمر الهزائم. إنّه عالمٌ جديدٌ من المشروعات الجهيضة والآمال المحبَطة والفرص التي لا يزداد وضوحها إلّا في غيابها»(8).

التوقُّعات تتهاوى، والحركةُ إنْ وُجدت فهي للأسفل، لا للأعلى. ولقد أظهر استطلاعٌ أجراه مركز بيو للأبحاث في آذار/مارس 2020م أنّ الأكبر سنًا في الجيل زِد(9) تعرّض لضربةٍ موجعةٍ في جائحة كورونا، أوجع بكثيرٍ ممّا تعرّض لها جيلُ طفرة المواليد أو الجيل إكس أو الجيل واي. أمّا المفارقةُ فهي أنّ الجيل زِد (ويُطلق عليه أيضًا جيل ما بعد الألفِيّين) سيكون الأكثر تعدُديّةً والأعلى حصولًا على تعليمٍ جيّد. فهم على الأرجح سيلتحقون بالجامعات، وهم أقلُّ عُرضةً للانسحاب من الدراسة الثانويّة. ولكنْ في هذا العصر الذي نعيش فيه، أيُّ جَدْوَةٍ يمكننا القول بثقةٍ إنّ التّعليم سيجعل المستقبل أسهل للجيل التالي؟

تشيرُ الاستطلاعات تلو الأخرى إلى أنّ الشباب اليومَ أكثرُ قلقًا من أيّ وقتٍ سابق. فلقد تعرّضوا لضغطٍ هائلٍ بسبب التغيُّر المناخيّ، والعنصريّة والتفرقة، وتكاليف السكن، والدُّيون المتزايدة، والاضطراب في سوق العمل، وتأثير وسائل التواصل الاجتماعيّ. وفي هذه الأوقات نشهد تأثيرًا هدّامًا على الصحّة النفسيّة عمومًا بسبب التبعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة غير المسبوقة للجائحة، في حين تتحمّل النساء والأقليّات والشباب وطأة الأزمة. حريٌّ بالذكر أنّ الإناث أكثرُ عرضةً لمواجهة الصعوبات الماليّة(10). فـ«الوظائفُ المؤنّثة» (كالرّعاية، والترفيه، والمبيعات، وخدمة العملاء والخدمات الأخرى) عادةً ما تكون رواتبها أقلُّ من الأخرى، كما يُنظر إليها بدونيّة، ولعلّها تكون أوّل وظائف تتلاشى في الركود الاقتصاديّ. كان التّعليم بالنّسبة إلى نساءٍ مثل أمّي يعني الاستقلال الماليّ والهروب من الأعراف المحافِظة والقيود البطريركيّة. أمّا في هذا الغصر الذي يتّسم بالهشاشة وغياب الأمان والحركة نحو الأسفل، في العصر الذي يبدو فيه كلُّ شيءٍ عابرًا متلاشيًا، فما الذي قد يضمنه التّعليم بالضبط؟

---

(4)Hintz, Arne, Line Dencik, and Karin Wahl-Jorgensen. *Digital Citizenship in a Datafied Society*. John Wiley & Sons, 2018.

(5)Hintz, Arne, Line Dencik, and Karin Wahl-Jorgensen. *Digital Citizenship in a Datafied Society*. John Wiley & Sons, 2018.

(6) دهاليز الصدى أو الهمس (whispering galleries): تلك التي تُبنى عادةً تحت قبّة معيّنة بطريقة هندسيّة تجعل من الممكن لمن يقف في مكانٍ ما في الدهليز أن يسمع حتّى الهمسات الخفيضة من أوّل الدهليز. والكاتبة تقصد من هذا المجاز أنّنا إنّما نستمع إلى أنفسنا فقط. (المترجم)

(7) من قصيدة «أغنيةُ نفسي» للشاعر الأميركي وولت وتمن: «أنا كبيرٌ، في داخلي جمهرات».

(8) لا تشير المؤلفة إلى المصدر، لكنني بالبحث وجدتُ هذا الكلام في مقالٍ منشور لزيغمونت باومان في جريدة الغارديان بتاريخ 31 مايو 2021 م:

https://www.theguardian.com/commentisfree/2012/may/31/downward-mobility-europe-young-people

(الزيارة في تاريخ 8 إبريل 2021 م). (المترجم)

(9) تقسيمٌ ديمغرافيّ للأجيال، فهناك جيل طفرة المواليد (baby boomers) وهو جيل المولودين بعد الحرب العالميّة الثانية إلى عام 1964م، وهناك الجيل إكس (Gen X) وهو جيل المولودين بين عام 1965م وعام 1980م، وهناك الجيل واي أو جيل الألفيّين (Gen Y, Millennials) وهو جيل المولودين بين عام 1981م وعام 1996م تقريبًا، وأخيرًا الجيل زد (Gen Z)، وهو جيل المولودين من عام 1997م إلى عام 2012م أو 2015م. (المترجم)

(10) وجدتْ دراسةٌ استطلاعيّة أجراها صندوق النساء الشابات (Young Women Trust) أنّ 41٪ من الشابّات قلن: «كان الاحتفاظ بالنقود لبعض الوقت معاناةً حقيقيّة». وعلى المنوال نفسه أظهرت مؤسّسة صندوق الأمير (Prince's Trust) الخيريّة للشباب أنّ الضغوط الماليّة كانت «تتراكم على الشباب» (الغارديان، 29 سبتمبر 2017م). وكشف بحثٌ أجرتْه مؤسّسة (Ipos MORI) وجمعيّة فوسِت (Fawcett Society) أنّ التأثير المباشر للأزمة في مجال التوظيف كان أوضح عند النساء (Ipsos Mori, 20 May 2020).

القلق

عصرُنا هذا عصرُ عدوى القَلق. ثمّ قلقٌ عميقٌ لا هوادة فيه حول وضع العالم، ومكاننا في هذا العالم، أو غياب مكاننا. فمن موجز الأخبار إلى نشرتها إلى منشورات التواصل الاجتماعيّ، يوجد مصطلحٌ واحدٌ يتكرّر في حياتنا اليوميّة: أزمة. غير بعيدةٍ عنّا أزمةُ اللاجئين التي تتكشّف أمام أعيننا على نحوٍ مأساويّ. وهناك أزمة الدّيمقراطيّة اللّيبراليّة. أزمةُ الحضارة الغربيّة. الأزمة الإيكولوجيّة وحالة الطوارئ المناخيّة. الأزمةُ في أنظمتنا الصحّيّة والاجتماعيّة. أزمةُ المشرّدين، والفقر، والتفاوت المتزايد، والعنصريّة المتجذّرة... ثمّ نتحدّث عن أزمة قطاعاتٍ بعينها: الثروة السّمكيّة، الزّراعة، الصناعة، المحالُّ التّجاريّة، السياحة، الضيافة... لكنّنا لا نتحدّث عمّا تفعله بنا هذه الحالة من العيش تحت توتُّرٍ دائمٍ بنفسيّاتنا وعافيتنا العقليّة.

الحقيقةُ أنّ هناك كثيرًا من المشاعر السلبيّة حولنا وداخلنا: غضبًا، وخوفًا، وسَخَطًا، ورِيبةً، وحزنًا، وتشكُّكًا، وشكًّا دائمًا في النفس... وتوجُّسًا مستمرًّا قد يكون أكبر من جميع ما سبق. إنّه ذُعرٌ وجوديّ. كلُّ هذه العواطف في الواقع جزءٌ من حياتنا الآن. بل إنّ المساحات الرقميّة نفسَها أصبحت مساحاتٍ عاطفيّةً في الأساس. فالمنشورات التي تنتشر بسرعةٍ هائلة، أو مقاطع الفيديو التي يشاهدها الملايين مشحونةٌ بالعواطف. المهمُّ هنا أن نعرف كيف يخلق كلُّ هذا توجُّهًا في النفس، أو عادةً في التّفكير، تخلّدُ نفسها في الزمان والمكان. في دراسةٍ أجراها معهد الأبحاث الاجتماعيّة، وجد الباحثون أنّ «الناس الذين يقلُّ سماعهم للأخبار الإيجابيّة، تزداد تعليقاتهم السلبيّة، وتقلُّ تعليقاتهم الإيجابيّة. أمّا حين قلَّ تعرُّضهم للمنشورات السلبيّة، فقد حدث العكس»(11).

يرى الأطفال أبويهم تعيسَين داخل البيت، فيصيبهم ذلك الشعور نفسه. يلتقي الآباء في مجموعات دردشةٍ على الإنترنت أو يلتقون بزملاء الدّراسة، فيتبادلون من بين ما يتبادلونه مبعثَ قلقهم من النّظام التّعليميّ أو المستقبل عمومًا. نحن مخلوقاتٌ اجتماعيّة؛ نقلق حين نرى شخصًا آخر يشعر بالقلق، ونُصاب بالذعر حين نرى مَن حولَنا مذعورين.

فعلى مدار الأسبوع نجد أنفسنا مجبرين على منازعة شتّى المشاعر الكئيبة، رغم أنّنا نادرًا ما نملك ما يكفي من الوقت أو الإرادة كي نتفكّر فيها. نُنفق الساعات أمام التلفاز أو المذياع أو الإنترنت في جدلٍ حول «العوامل الملموسة والقابلة للقياس». نُولي الأهمّيّة القصوى للاقتصاد وأسواق الأسهم والسياسة، لكنّنا قلّما نهتمُّ بشيءٍ مجرّدٍ ومُراوغٍ مثل «العواطف». في أثناء ذلك نظلُّ نرزح بصمتٍ تحت مشاعر تثير الغيظ، ونفترض أنّنا نحن وحدَنا من يتحمّل وطأتها في

حين يعيش الآخرون حيواتهم دون منغّصات. وهذا من دون شكٍّ مجرّد وهم. ونحن نعرف ذلك جيّدًا في دواخلنا، غير أنّه من الصعب على المرء أن يسيطر بنفسه على انتكاس حالته النفسيّة ويلجم مثارات قلقه طوال الوقت. علاوةً على ذلك فنحن نرغب دائمًا في أن نبدو أقوياء، والعواطفُ كما يُقال لنا تُبدي ضعفنا. وكلّما ضعُفت قدرتنا على التعامل العَلَنيّ مع العواطف السلبيّة، تأخّرَ إدراكنا لعدد الذين يُعانون مثلنا، وإدراكنا لحجم الأذى الذي يجلبه الصمتُ على علاقاتنا وتفاعلنا مع الآخرين، والدور الذي تؤدّيه هذه العلاقات في تشكيل مجتمعاتنا بطُرقٍ كثيرةٍ جدًا قد لا تكون مباشرة.

قد يجوز لنا القول إنّ القلق صِنوُ الخوف، لكنّ الخوف إنّما يدور حول تهديدٍ يأتيك من خصمٍ أو عدوّ، أمّا القلق فهو أكثر غموضًا وانتشارًا ونَفاذًا. فالقلقُ وفقًا لرأي مارتن هايدغر يُعنى بـ«الوجود في العالم في حدّ ذاته». والعالمُ الذي نعيش فيه الآن يُفاقِم حِسّنا بالضَعف. يبدو الأمرُ وكأنّنا لا نملك سيطرةً على أيّ شيء، وحين ننظر في المرآة (أو في هواتفنا المحمولة) لا نرى الإنسان الدّيكارتيّ الذي يُفترض به أن يملك زمام قَدَره. ها نحنُ نشهدُ فقدًا للذات. و«إنّ أشدّ الأخطارِ كلّها، أيْ فقدان المرء ذاته، قد يحدث في هدوءٍ شديدٍ في العالم كما لو أنّ تلك الذات لم تكن شيئًا على الإطلاق. لا يوجد فَقدٌ آخر يحدث بهذه الدّرجة من الهدوء، فأيّ شيءٍ آخر تفقده لا بُدّ من أن يُلاحَظ، سواءٌ أكان ذراعًا، أم ساقًا، أم خمسة دولارات، أم زوجة، إلخ»(12).

كلُّ هذا له تأثيرٌ كبيرٌ في صحّتنا وعافيتنا النفسيّة.

لقد أصبحتُ أؤمن الآن في هذا العالم المتحوّل الذي لا يمكن التنبّؤ به أنّه لا بأس أبدًا في أن تشعر بأنّك لست على ما يرام. لا مشكلة على الإطلاق في ألّا تشعر بأنّك بخير. والحقُّ إنّك إنْ لم تشعر من وقتٍ إلى آخر بطوفانٍ من القلق والحيرة والإحباط والإنهاك، أو الغضب الشديد، فلعلّك لا تدري بما يحدث من حولك، هنا وهناك وفي كلّ مكان. لدينا أسبابٌ مشروعةٌ للقنوط. وحين لا يعود أمام أعيننا شيءٌ ثابتٌ مستقرّ، فمن المهمّ أن نعترف بما في عواطفنا من طبيعةٍ متنوّعةٍ ومتقلّبة. وعليه ينبغي لنا التوقُّف عن لوم أنفسنا والشعور بالخزي لأنّنا لسنا مواطنين يشعرون بدوام السعادة والرضا كما هو الطموح المرسوم لنا. غير أنّ الاعتراف بهذا الجانب المظلم من عواطفنا ليس إلّا بداية الطريق.

لا يُمكن أن يكون المنتهى.

لذلك إنْ كان التحدّي الأوّل لنا هو السماح لأنفسنا بتجربة الاضطرابات النفسيّة أيًا ما كانت ومواجهتها بصراحةٍ وجدّيّة، والاعتراف بوجود المشاعر السلبيّة في حياتنا، فالخطوة التالية

هي أن نقرّر ما ينبغي فعله بهذا الاعتراف، وكيف نحوّله إلى شيءٍ صحّيّ وبنّاء.

ولكنّ قبل هذا، ينبغي لنا أن نتطرّق إلى عاطفةٍ أخرى واسعة الانتشار: الغضب.

---

(11)Anger, Fear, and Echo Chambers: The Emotional Basis for Online Behavior",

D. Wollebaek, R. Karlsen, K. Steen-Jhonsen, B. Enjolars (April 2019).

(12)Soren Kierkegaard, *The Sickness Unto Death*.

الغضب

قد يكون القلق باعثًا على الوهن، والسوداويّةُ حملًا ثقيلًا كذلك. فما بالُ الغضب؟ يحدث كثيرًا في المهرجانات الأدبيّة أو اللّقاءات المفتوحة أو المناسبات الجامعيّة أن يقف شخصٌ من الجمهور (عادةً ما يكون شابًا) ويحاول أنْ يقنعني بضرورة أن نشعر كلُّنا بالغضب، وأنّ الغضب هو الزّيت الذي تدورُ به عجلاتُ العدالة، واللّافتة التي ينبغي لنا جميعًا أن نرفعها بفخرٍ في وجه الجمود السياسيّ والتفاوت الاقتصاديّ والاجتماعيّ والعِرقيّ. والحقُّ أنّني أحترم صِدق هذه الصّيحة النابعة من القلب، وأعترفُ بصحّتها من كلّ قلبي. غير أنّني بالقدر نفسه لستُ واثقةً من أنّ الغضب في حدّ ذاته قد يكون قوّةً موجّهةً وخيرَ صديقٍ لنا على المدى الطويل.

في الوقت الذي أكتبُ فيه هذه الكلمات تستعرُ احتجاجاتٌ وصداماتٌ في مدنٍ عديدةٍ في الولايات المتّحدة، ردًا على جريمة القتل المروّعة التي راح ضحيّتها جورج فلويد. فقد انتشرتْ مقاطع الفيديو في وسائل التواصل الاجتماعيّ ويظهر فيها فلويد (الرجل الأسودُ الأعزل المقيّد ذو الستّة والأربعين عامًا) بعد أن ثبّته على الأرض عدّةُ أفراد شرطةٍ بينما يضغطُ شرطيٌّ آخر بركبته على رقبة فلويد مدّة تسع دقائق تقريبًا، رغم توسّلات فلويد المتكرّرة له بأن يتوقّف لأنّه لا يستطيع التنفُّس. وكم هو مُفجِعٌ أن نرى تجاهل الشرطة لأولئك المارّة المرتاعين الذين طلبوا من الشرطة أن تكفَّ عن قسوتها. لقد شاهد الملايين حول العالم هذه المقاطع الصادمة. ها نحن إذن قد شَهِدنا شهادةً جمعيّةً على جريمة قتل.

في رواية عناقيد الغضب لجون شتاينبك تصف إحدى الشخصيّات معاناتها بالعبارة التالية: «ما أنا إلّا ألمٌ يكسوه جِلد». لقد بتُّ أشعر أكثر فأكثر أنّنا ألمٌ وأذى ووِحدة، يكسوها الجِلد.

يقول إيلي فيزيل إنّ «المعاناة الإنسانيّة في أيّ مكان، تهُمُّ الرجال والنساء في كلِّ مكان». فإذا ما شهدنا على معاناة، أو ظلم، أو سلوكٍ غير أخلاقيّ، ما الذي ينبغي علينا فعله؟ هل نطلب من أعيننا أن تنسى ما رأت، ومن أفواهنا ألّا تنبس بكلمة، ومن قلوبنا أن تفقد الإحساس شيئًا فشيئًا؟ أم نختار أن نرفع أصواتنا، ونقول ما لدينا، ونتواصل مع الآخرين، ونحشد، ونُطالب بالعدالة إلى أن تتحقّق؟ ثمّة جحافل من الشباب الآن في شوارع أميركا وكبريات المدن العالميّة اتّخذت موقفها. لقد حسموا أمرهم.

يسألني أحد القرّاء في وسائل التّواصل الاجتماعيّ: «ما الذي ينبغي للكتّاب أن يقولوه للشباب الذين يتظاهرون الآن في الشوارع؟».

والحقيقةُ أنّ العكس هو الصحيح؛ فأولئك المتظاهرون الشباب هم الذين يوصلون لنا نحن

الكتّاب وغيرنا رسالةً قويّة، وعاجلة. ولو أنّنا أصخنا السمع بين كلّ هذا الهياج والصيحات والصفّارات، لوجدنا أنّهم يقولون هذا: «لم لا تغضبون؟».

بَل غاضبون. وأنا غاضبة.

حدث أن تصادفت الاحتجاجات في أميركا مع الذكرى السنويّة لمظاهرات حديقة غيزي التي اندلعت في أيّار/ مايو 2013م في إسطنبول ثمّ انتشرت كالنار في بقيّة أنحاء تركيا، على خلفية إصرار الحكومة التركيّة على تدمير حديقةٍ صغيرةٍ جذّابةٍ في ميدان تقسيم (وهي واحدةٌ من آخر ما بقي من مناطق خضراء في مدينةٍ إسمنتيّة) من أجل إعادة بناء ثكنةٍ عسكريّةٍ عثمانيّةٍ ومجمّعٍ تجاريٍّ آخر. المناطق الحضريّةُ مساحاتٌ مُشتركةٌ بين الناس، غير أنّ الأنظمة السلطويّة دأبت على عدم الاكتراث بمطالبات الناس الذين يتنفّسون في تلك المساحات.

والغضبُ في وجه الظلم والاضطهاد ليس مجرّد استجابةٍ إنسانيّةٍ نبيلة، بل كثيرًا ما يكون نقيضَ اللامبالاة. هذا وللغضب ذاكرةٌ أطول من بقيّة العواطف. ذات مرّةٍ ألقت الشاعرة والكاتبة أودري لورد (Audre Lorde) كلمةً رئيسةً قويّةً في الجمعيّة الوطنيّة لدراسات المرأة بعنوان «استخدامات الغضب: استجابات النساء للعنصريّة العرقيّة». في هذه الكلمة أوضحت أودري كيف يكون الغضب استجابة ملائمةً للعنصريّة المستحكمة، كما شدّدت على أنّ «معظم النّساء [في الثقافة البطريركيّة] لم يكتسبنَ أدواتٍ للتعامل مع الغضب تعاملًا بنّاءً».

كيف يمكننا أن نحوّل غضبنا الفرديّ والجمعيّ إلى قوّةٍ من أجل الخير؟ هذا سؤالٌ مهمّ. وينبغي علينا التنبّه إلى أنّ الغضب يمكن أن يصبح مُكرّرًا وعنيدًا ومُتلِفًا، ويمكن أيضًا أن يصبح عاطفةً كسيحة. إذ يبدو الأمر وكأنّ قوّة الغضب تكفي لإقناع الشخص بأنّه فعل ما عليه، على أنّ الغضب يمكن أن يبقيك في حالةٍ من الترقّب والهوس بالأخطاء، من دون أن تكون قادرًا على المضيّ قُدُمًا كي تجد وسيلةً لعلاج الخطأ. فإنْ لم نستطع أن نوجّه غضبنا إلى قوّةٍ أكثر إنتاجيّةً وهدوءًا (لكنّها ليست بالضرورة أقلّ شدّة)، قد يصبح قابلًا للاشتعال وشديد التدمير، يحرق البنايات والجسور والعلاقات الإنسانيّة، ويظلُّ يحرق في دائرةٍ مفرغة، يقودُ العنفُ فيها إلى مزيدٍ من العنف. ينبغي أن نمنع ذلك.

ذات مرّةٍ، قالت الروائيّة والباحثة توني موريسون: «أشعر بالغضب من بعض الأشياء، ثمّ أمضي وأعمل».

قد لا نستطيع أن نكبت شعورنا حين يكون العالم مثيرًا للغضب على نحوٍ سافر، ولكنْ في الوقت نفسه علينا أن نخرج ونتواصل مع الناس ونقف إلى جانب الذين تعرّضوا للأذى. لا ينبغي

لنا أيضًا أن نهمل النظر إلى دواخلنا، ونفتّش بدقّةٍ عمّا هو مخبوء من افتراضاتٍ مسبقةٍ وقوالب نمطيّة، ثمّ نوسّع قلوبنا ونرقّقها. وفيما نحن عاكفون على ذلك لا بدّ من أن نمضي، ونواصل العمل كما فعل الذين من قبلنا.

تبلُّد المشاعر

تبلُّد المشاعر قد يكون عاطفةً خامدة، لكنّه قد يكون أكثر العواطف ضررًا. ومثلما أنّ اللّون الأبيض مزيجٌ من جميع الألوان، فتبلُّد المشاعر مزيجٌ من عواطف عديدة: القلق، والخذلان، والحيرة، والإنهاك، والاستياء... فإنْ مزجتَ هذه العواطف مزجًا سريعًا قويًا سينتهي بك الأمر إلى شللٍ متغلغل، ونقصٍ في المشاعر. ضَرْبٌ من الخَدَر.

من تجارب التعلّم المهمّة أن نقرأ مذكّرات النّاجين من أحلك الفصول في التاريخ البشريّ، كالهولوكوست والتطهيرات العرقيّة والحروب الأهليّة. وثَمَّ سؤالٌ حيويٌّ يتكرّر عند كثيرٍ من هؤلاء النّاجين: «كيف أمكن لتلك الفظاعات أن تحدث؟». يريد هؤلاء أن يعرفوا ما إذا كان السّبب هو أنّ أغلبيّة البشر أشرارٌ بطبيعتهم. وإنْ لم يكن الأمر كذلك، فكيف نفسّر ما يحدث من وحشيّةٍ وخبثٍ ممنهجين؟

ولكي نستطيع الإجابة عن هذا السّؤال الراهن، ينبغي علينا أوّلًا أن نفهم كيف يعمل تبلُّد المشاعر. إنّ التّدمير الشّامل لا يبدأ في معسكرات التّعذيب أو أفران الغاز، ولا يبدأ بوضع علاماتٍ على أبواب الجيران لأنّهم «مختلفون» (أو بسَنّ قوانين تفرض على الأقليّات أن يحملوا علاماتٍ معيّنةً أو يرتدوا ملابس معيّنة). التمييز يبدأ دومًا بالكلمات. يبدأ باللّغة.

بينما أنا أكتب هذه الكلمات تحتشدُ مسيرةٌ في المَجَر، إذ تَجَمهرَت جماعةٌ من أقصى اليمين تحمل لافتاتٍ عنصريّةً وشعاراتٍ شوفينيّة، تطالب الأقليّة الروميّة (أو الغجر) بمغادرة البلاد. فأولئك المتعاطفون مع النازيّين الجُدد لا يرون الروميّين سواسيةً مع باقي البشر، بل إنّهم ليسوا بشرًا أساسًا. إنّما هم «حشراتٌ تكتسح» البلاد.

فكيف يتصرّف باقي المجتمع والعالم مع هذا؟

تحدث الأعمال الهمجيّة بسرعةٍ شديدةٍ وتنتشر على نطاقٍ واسع، ولا يحدث ذلك بالضرورة لأنّ كثيرًا من الناس أصبحوا أشرارًا أو معدومي الأخلاق، بل لوجود عددٍ غير قليلٍ من الناس الذين أصيبوا بالخَدَر. أي حين نُصبح لا مبالين، ومقسّمين، ومنفصلين عن بعضنا بعضًا. حين لا نهتمُّ بالآخرين لفرط انشغالنا بأنفسنا، فلا نهتمُّ ولا يرفُّ لنا جفنٌ لآلام الآخرين. هذه هي العاطفة الأخطر: غياب العاطفة.

من أكبر المفارقات التي نشهدها في عصرنا هذا أنّ المتعصّبين أكثرُ شغفًا وانخراطًا والتزامًا من كثيرٍ من المعتدلين. فنحن حين ننخرط في الخطاب المدنيّ والفضاء العامّ نصبح معزولين

ومفكّكين أكثر فأكثر، ما يفضي إلى تبلُّد المشاعر.

غير أنّنا حين نصبح أكثر انخراطًا ومعرفةً بكلّ ما يدور من حولنا يزداد شعورنا بخيبة الأمل والجَزَع والغضب، وأنّنا محاطون بمشاعر سلبيّةٍ في وجه الأخبار والأحداث المتسارعة. فلفرط كثرة تلك الأحداث يصعب التعامل معها. وهكذا نشتاق إلى البساطة، فننكفئ على أنفسنا وننحسر إلى دائرة المألوف. وهنا اللحظة الخطرة؛ إذ في هذا الوقت تحديدًا يتحرّك الدهمائيّون الشعبويّون ويقدّمون وعودهم بأنْ يبسّطوا الأشياء لنا.

هنا يكمن واحدٌ من أهمّ التحدّيات التي تواجهنا: فكيف نحافظ على انخراطنا في الأحداث وسلامة عقلنا في الوقت نفسه؟

المعلومات والمعرفة والحِكمة

تقول الروائيّة والمفكّرة دورِس لِسِنغ: «لقد قضيتُ وقتًا طويلًا أتفكّر في صورتنا التي سيراها مَن يأتون بعدَنا»، ما يشير إلى قلقها من احتمال انحدارنا إلى مستوى الهمجيّة والجهل. وهي بالقدر نفسه تدرك أنّ هذا قد يحدث على الرّغم من كمّ المعلومات الذي يتسرّب إلى حيواتنا.

في هذا العصر الذي نعيش فيه ثمّ فائضٌ من المعلومات، وقليلٌ من المعرفة، وقدرٌ ضئيلٌ من الحكمة. ولا بدّ من أن نغيّر هذه المعادلة؛ فنحن بالتأكيد أحوج ما نكون إلى معلوماتٍ أقلّ، ومعرفةٍ أكثر، وقدرٍ أكبر بكثيرٍ من الحكمة.

وهذا الوابل الذي لا ينتهي من المعلومات مشكلةٌ في حدّ ذاته (ناهيك عن المعلومات المغلوطة)؛ فليس في وسعنا أن نتعامل مع كلّ هذا القدر من المعلومات. وإن أردنا الصّدق فنحن لا نتعامل معها أساسًا، بل نقلّب الأخبار ونحرّك شاشاتنا للأعلى والأسفل سريعًا من دون تأمُّل، والأدهى من هذا أنّنا نفعل ذلك من دون شعور. وبعد فترةٍ، لا يعود هناك معنى للأرقام؛ فلا يهمُّ ما إذا كان عدد اللاجئين الذين قضوا نحبهم خمسة آلافٍ أم عشرة آلاف، فنحن لا ندرك الفرق ولن ندركه إلّا إذا عرفنا الحكايات الشخصيّة خلف هذه الأرقام. هكذا تتسرّبُ المعلومات من بين أصابعنا كالرمل، فتمنحنا وهمًا بأنّنا أحطنا بالموضوع (وإن لم نعرف، يمكننا أن نبحث في «غُوغل»)، في حين أنّنا لا نعرف إلا القليل. والمفارقةُ هي أنّ فائض المعلومات هذا يُعدُّ عائقًا أمام المعرفة الحقيقيّة.

المعرفة تتطلّب قراءةً، وكتبًا، وتحليلاتٍ معمّقة، وصحافةً استقصائيّة. ولا ينبغي هنا أن نغفل الحكمة، تلك التي تربط بين العقل والقلب، وتفعّل الذكاء العاطفيّ، وتزيد من التعاطف مع الآخرين. لهذا السّبب نحتاج إلى القصص، ومن يسردون القصص.

لا شكّ في أنّنا نعيش في أوقاتٍ صعبة، وهناك الكثير ممّا نحتاج إلى التعامل معه، على مستوى الفرد والمجتمع. لكنّنا لو تخيّلنا لحظةً عالمًا من دون كتب، من دون سردٍ للقصص، من دون تعاطف، فلن نجد أمامنا سوى مكانٍ أكثر وحدةً وانقسامًا.

✹

قبل فترةٍ ليست طويلة، روّج كثيرٌ من الخبراء والباحثين في العالم الغربيّ للدّيمقراطيّة اللّيبراليّة، زاعمين بثقةٍ أنّها الخيار المجدي الوحيد لهذا العالم بعد أن فشلت جميع النماذج السياسيّة الأخرى. فقد سقط جدار برلين، وانهار الاتّحاد السوفياتيّ، وودّعنا هاجس الحرب

العالميّة الثانية بما فيه من كوابيس القوميّة والسلطويّة والشوفينيّة. وانتشر التفاؤل في التسعينيّات وبداية الألفيّة، مع قناعةٍ لا تهتزّ بأنّ التاريخ يتحرّك إلى الأمام سريعًا، وأنّ التقدّم أمرٌ محتوم.

في تلك الفترة كان أقوى هؤلاء المتفائلين من شريحة المتفائلين بالتقانة؛ فكثيرٌ منهم كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأنّ وسائل التّواصل الاجتماعيّ والتقانات الرقميّة سوف تفضي إلى موجةٍ إثر موجةٍ من التحوّل الدّيمقراطيّ في العالم، ما يؤدّي إلى مزيدٍ من الحرّيّة والفرص وتحقيق الذات. يرى أصحاب هذا الرأي أنّ الأفراد حين يحصلون على ما يكفي من المعلومات فسوف يتّخذون القرار الصحيح بكلّ تأكيد (سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا). وهكذا فإنّ أفضل ضمانٍ للتقدّم هو تمكين انتشار المعلومات والتقانة وتسريع هذا الانتشار، وبعد ذلك نترك التاريخ يسير في مجراه. إلى هذا الحدّ بلغتْ الثقة، إلى درجةٍ أنّه في أوائل الربيع العربيّ (حين بدا أنّ أشدّ الأنظمة فسادًا يمكن أن تسقط، وأنّ المنطقة كلّها سوف تتغيّر بفضل الشباب المتطلّع إلى الدّيمقراطيّة) سمّى زوجان مصريّان وليدتهما «فيسبُك». وبعد عدّة أشهرٍ من ذلك سمّت أسرةٌ إسرائيليّةٌ ابنتها «لايك». هؤلاء هم الأطفال المولودون في عصر التفاؤل والأمل والتغيير.

كان المأمول أن يُمكّن المواطنون، وأن يُدفع بأنظمةٍ كاملةٍ في التحوّل الدّيمقراطيّ من خلال التدفّق المجّانيّ للمعلومات والأفكار، إذْ لا يمكن للشموليّة أن تستمرّ في ظلّ المنصّات الرقميّة. في ذلك الوقت لم يدرك الكثيرون أنّ وسائل التّواصل الاجتماعيّ أشبه بالقمر الذي نرى جانبه المفعم بالنور والوعد، ثمّ ننسى جانبه الآخر المظلم. فالمنصّات الرقميّة ذاتها يمكن أن تسهم في انتشار المعلومات المغلوطة، والتشهير، وخطاب الكراهية، والزيف، والانقسام، لذلك تلقّتْها الأنظمةُ الأوتوقراطيّة بحفاوةٍ شديدة، شأنها شأن المتطرّفين والدهمائيّين أنفسهم.

فإن انتقلتُ إلى يومنا هذا، رأيت التفاؤل المطْمئِنَ الذي كان في العقود السابقة قد تبخّر، ولم يترك وراءه سوى بذرة تشاؤمٍ سريعة الإنبات. وإنّني لأجد نفسي أفكّر في تينك الصغيرَتين (فيسبُك في مصر، ولايك في إسرائيل) وأتساءل عن الحياة التي تعيشانها. أيّ منطقةٍ وأيّ عالمٍ منحناه لهما؟ أتراهما تنظران إلى البهجة التي سادت حين وُلدتا على أنّها بقايا أثريّةٌ من متاع الماضي؟ والأهمّ من ذلك، هل يُثقل كاهليهما القلقُ والشّلل الذي ينبع من الوقوف على مفترق طرقٍ تاريخيّ من دون معرفة ما يحمله المستقبل، كحال أغلب الناس منّا؟

لقد ولّدَ التفاؤل الزائد زَهوًا بالنفس وجهلًا، ووهمًا بالتطوّر الدائم. كما قاد إلى افتراض أنّ حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأقلّيّات وحريّة التعبير أشياء يهتمّ بها ويقاتل من أجلها أشخاص من الدول الأخرى، لا في هذا العالم الغربيّ الدّيمقراطيّ؛ ذلك أنّنا تجاوزنا هذه

المشكلات الرجعيّة. فالدّيمقراطيّة قد استقرّت وترسّخت في عالمنا الغربيّ، وكسبنا المعركة.

لكنّنا في عالم ما بعد الجائحة نُدرك أنّه لا توجد دولةٌ تجاوزت تلك الهموم، فكلّنا في العالم الآن نعرف أنّ التاريخ يمكن أن يعود إلى الخلف، وأنّ التقدّم ليس مضمونًا ولا مطّردًا. من الصعب تحقيق الدّيمقراطيّة، ولكنّ من السّهل فقدانها. فهي نظامٌ مترابطٌ من الضّوابط والتّوازنات والنّزاعات والتّسويات والحوارات. الدّيمقراطيّةُ تذبُل في ظلّ الخَدَر السائد وفقًا لما حذّرتْ منه الفيلسوفة والمنظّرة السياسيّة حنّة أرنت حين تحدّثت عن مخاطر «المجتمع شديد التفتُّت». يجدر بنا جميعًا، أينما كنّا في هذا العالم، أن نصبح مواطنين منخرطين ومشاركين أكثر فأكثر.

جرعةُ التّشاؤم في حدّ ذاتها ليست بالضرورة مُضرّة؛ فهي تجعل العقل يقظًا وأكثر وعيًا بما يدور حوله في كلّ مكان. لكنّ التشاؤم الزّائد يُثقل القلب، ويستنزف طاقتنا ودافعيّتنا. التشاؤم ينهكنا على المستوى العاطفيّ والجسديّ. وربّما في هذا الزمان الذي يكون فيه كلُّ شيءٍ في اندفاعٍ مستمرّ، نحتاج لكي نحافظ على عقولنا إلى مزيجٍ من التّفاؤل الواعي والتشاؤم الإبداعيّ. نحتاج كما يقول غرامشي إلى «تشاؤم العقل، وتفاؤل الإرادة».

غالبًا ما نتعلّم من القصص أن نفكّر، وننظر إلى الأشياء، ونشعر، ونتذكّر العالم على نحوٍ أكثر دقّةً وتأمُّلًا. وحين نتحصّلُ على فهمٍ أفضل لمعاناة الناس ذوي الخلفيّات المختلفة ونبدأ في تخيُّل الحيوات الموجودة غير حياتنا التي نعيشها، نُدرك ما في الهُويّات من تعقيدٍ وثراء، وندرك الدّمار الذي نلحقه بأنفسنا وبالآخرين حين نسعى إلى تقليص تلك الهُويّات إلى صفةٍ واحدةٍ نعرّفهم بها.

بصفتِي روائيّةً، أؤمن بما في القصص من قوّة تغييرٍ تقرّبنا من بعضنا بعضًا، وتوسّع مداركنا، وتُطلق إمكاناتنا الحقيقيّة للتعاطف والحكمة. ففي دوّامة الأخبار التي تحيط بنا (من تفاوتٍ وظُلمٍ، وانحرافٍ جارفٍ عن سُبل التعايش والتنوّع والاحتواء) من السّهل أن نشعر بأنّ القصّة التي نعيشها ليست القصّة التي اخترناها. أنّ الأحداث التي نمرُّ بها تشوّه الحكاية. أنّ رؤيتنا للحقيقة والواقع تدوس عليها أقدامُ الآخرين، أولئك الذين لهم صوتٌ أعلى، وقوّةٌ أكبر. وهذا النّشاز المتصاعد الذي يكسرُ أصواتنا قد يبدو مثل حالة جنون، أو فقدانٍ للعقل، إنكارًا لكرامتنا وإنسانيّتنا. فمن الطبيعيّ إذن أن نبحث عن مجموعةٍ توافقنا، تعزّز قِيَمنا الجوهريّة وأهدافنا الأساسيّة، وتقرّبنا من القصص التي نريد أن نسمعها ونُعلي من أهمّيّتها. قد تكون هذه بدايةً جيّدة، لكنّها لا يمكن أن تكون الوجهة النهائيّة كاملةً. فإنْ لم نفتح آذاننا للانتماءات والحكايات المتعدّدة الشاسعة اللانهائيّة التي يذخرُها لنا العالم، لن نجد إلّا نسخةً زائفةً من العقل، مثل قاعةٍ من المرايا التي تعكس صورتنا لكنّها لا تقدّم لنا مخرجًا أبدًا.

لا تخشَ من التعقيد، بل ممّن يَعِدونك بطريقٍ مختصرةٍ وسهلةٍ للبَساطة.

ولا يجدر بك أن تخشى من العواطف، سواءً أكانت قلقًا أم غضبًا أم حزنًا أم وحدةً أم شعورًا بالألم. فنحن كائناتٌ عاطفيّة (بصرف النظر عن التّصنيف الجندريّ أو العرقيّ أو الإثنيّ أو الجغرافيّ)، حتّى أولئك الذين يطيب لهم أن يتظاهروا بعكس ذلك، بل هم بالذات أكثر من غيرهم. حلّل عواطفك السلبيّة وافهمها وتفكّر في منشئها، واحتوِها، ولكنْ في الوقت نفسه حاذر من أن تصبح هذه العواطف مكرَّرةً، وطقوسيّةً، وهدّامةً، ومُقيِّدة.

لدينا كلُّ ما يلزم من أدواتٍ لكي نعيد بناء مجتمعاتنا، ونقوّم طرقنا في التّفكير، ونحلَّ مشكلات التفاوت، ونُنهي التمييز ضدَّ الآخرين، ونختار الحِكمة الصادقة بدلًا من قصاصات المعلومات المغلوطة، والتعاطف بدلًا من الكراهية، والإنسانيّة بدلًا من القَبَليّة، غير أنّنا لا نملك الوقت أو المساحة لارتكاب الأخطاء في الوقت الذي يضيع فيه كوكبنا من بين أيدينا. بعد الجائحة لن نعود إلى ما كنّا عليه، ولا يجدر بنا ذلك. «ما نسمّيه البداية كثيرًا ما يكون النهاية... النهايةُ حيث نبدأ»(13).

---

(13)T.S. Eliot, «Little Gidding», *The Four Quartets*, Faber and Faber, London, 1941.

صدر للمؤلفة عن دار الآداب:

قواعد العشق الأربعون

الفتى المتيم والمعلّم

بنات حواء الثلاث

البنت التي لا تحب اسمها

10 دقائق و38 ثانية في هذا العالم الغريب

حليب أسود

شرف

لقيطة اسطنبول

قصر الحلوى

جزيرة الأشجار المفقودة